البخل في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

للدكتور / عبد الفتاح السيد نوفل

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ القائل : « اتَّقُوا الظُّلْمَ . فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ [1]» .

والقائل : «لا يجتمع الشحُّ والإيمانُ في جَوفِ رجل مسلم ، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في جوفِ رجلٍ مسلمٍ[2]» .

وبعدُ ...

فإني أسجد لله تعالى شكرًا على أن وفقني لشرف البحث في القرآن الكريم للوقوف على شيء من الأسرار البلاغية لموضوع غاية في الأهمية وهو (**البخل في القرآن الكريم دراسة بلاغية**) ؛ حيث إن هذا الموضوع ــ فيما أعلم ــ لم يتناوله أحد من الدارسين البلاغيين بدراسة بلاغية

---

(١) صحيح مسلم . لأبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . نشر دار الكتب العلمية ١٩٩٢ م . حديث ٦٥٢٨ . وروى أبو داوود في سننه قال « إِيَّاكُم وَالشُّحَّ فإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بالشُّحِّ ، أَمَرَهُمْ بالْبُخْلِ فَبَخِلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بالْفُجُورِ فَفَجَرُوا» . سنن أبي داوود . سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني . طبعة دار إحياء التراث العربي . حديث رقم ١٦٩٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد . لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي. نشر دار إحياء التراث العربي . حديث رقم ٩٥٥٣

مستقلة ، تقــوم على حصر مواضعه ، وتحليلها تحليلاً بلاغيًا ، يكشــف عن شيء من بلاغة القرآن في معالجة هذه القضية المهمة ، التي تعرض لها القرآن الكريم من جهات مختلفة ، وفي مقامات متعددة ، كمقام الحديث عن بخل الناس كافة ، أو في مقام الحديث عن بخل المشركين من اليهــود والنصارى وغيرهم ، أو في مقام الحديث عن بخل المنافقين ، أو في مقام الحديث عن بخل المؤمنين ، سواء أكان ذلك في مقام التحــذير منــه ، أم التنفير ، أم التوجيه إلى الاقتصاد في الإنفــاق ، أم الحــث علــى البــذل والعطاء، ثم إن التحذير من البخل لم يكن مقتصرًا علــى البخــل بالمــال فحسب ، بل ومن البخل بالعلم أيضًا ، وبكل ما فيه منفعة .

لقد كان ذلك باعثًا لي على تناول هذا الموضوع ، ودراسته دراسة بلاغية تقوم على استقصاء مواضعه ، وتصنيفها تصنيفًا موضوعياً ، يكون مناط النظر فيها هو السياق والمقام ، للوقوف على أســلوب القــرآن فــي المقامات التي تعرض فيها لمعالجة هذه القضية .

وهذا المنهج قد فرض عليَّ أن تُوَزَّعَ مادة هذا البحث على أربعــة مباحث :

المبحث الأول : عنوانه (بخل الناس كافة) .

وفيه تعرضت لما ورد في القرآن الكريم مــن الحــديث عــن أن الإنسان بخيل بطبعه .

المبحث الثاني : عنوانه (بخل المشركين) .

وفيه تحدثت عن :

اليهود أبخل الناس

بخل المشركين بالعلم أو المال

بخل المشركين بالإنفاق على الفقراء

بخل المشركين عما يلتزمون

المشركون يُلْقَوْن في جهنم بمنع الخير

المشركون يُوسَمون على أُنوفهم بمنع الخير

المشركون يَصلَوْن الجحيم بالبخل

المشركون يَسلكون في سَقَرَ بالبخل

المشركون يتردون في جهنم بالبخل

المبحث الثالث : عنوانه (بخل المنافقين)

بخل المنافقين عن الإنفاق في سبيل الله

شح المنافقين على المؤمنين بالخير

بخل المنافقين بالماعون

المبحث الرابع : عنوانه (بخل المؤمنين)

تحذير المؤمنين عن البخل

اتقاء الشح سبب الفلاح

اقتصاد المؤمنين في العيش والإنفاق

جزاء مانعي الزكاة من المؤمنين

وبعدُ...

فإني أدعو الله عز وجل أن ينفع المسلمين بهذا العمل المتواضع ، وأن يجعله خاصاً مُخْلَصًا لوجهه الكريم ، وأن يجعلني وجميع المسلمين ممن قال فيهم : ﴿ ... وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون ﴾ [الحشر/٩ والتغابن / ١٦] ، وأن نكون من عباد الرحمن الذين وصفهم بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان / ٦٧] .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور

عبد الفتاح السيد نوفل

المبحث الأول : بخل الناس كافة

الإنسان بخيل بطبعه :

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضعين :

الأول : جاء في سورة الإسراء في سياق يقول : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَءُهُ قُلْ سُبْحَـٰنَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً * وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلاَّ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً * قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِأَيَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا * قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلإِنْفَاقِ وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

[الإسراء/ ٩٠ : ١٠٠] .

يقول الرازي مبينًا علاقة الآية الأخيرة في هذا السياق بالآية الأولى منه: « أن الكفار لما قالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء/ ٩٠] طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم فبين الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله

لبقوا على بخلهم وشحهم ولما أقدموا على إيصال النفع إلى أحد وعلى هذا التقدير فلا فائدة في إسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه فهذا هو الكلام في وجه النظم والله أعلم[1]» .

وقال القرطبي : « اختُلف في هذه الآية على قولين :

أحدهما : أنها نزلت في المشركين خاصة ؛ قاله الحسن .

والثاني: أنها عامة ، وهو قول الجمهور ؛ وذكره الماورديّ [2]» .

وذكر العلماء أن ﴿ أَنتُمْ ﴾ في قوله جل وعلا : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ ٱلإِنْفَاقِ ﴾ فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور وهو ﴿ تَمْلِكُونَ ﴾ أي :لو تملكون تملكون ؛ وذلك لأن (لو) لا تدخل إلا على الأفعال ، فأضمر الفعل تملك وأبدل من الضمير المتصل وهو واو الجماعة ضمير منفصل وهو أنتم.

وعلى ذلك يكون المسند إليه قد قُدم على الخبر الفعلي في قوله جل وعلا : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ ٱلإِنْفَاقِ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي لقصر الشح وعدم الإنفاق خشية الفقر على المخاطبين قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا ، المغزى منه بيان الواقع ، وهو أن الإنسان بخيل بطبعه ، فلو قُدِّر أن المخاطبين ملكوا خزائن نعم الله تعالى التي لا تتناهى لأمسكوا عن الإنفاق خوفًا من الفقر ، فهذه الصفة الخسيسة وهي الشح الكامل المتبالغ مقصور عليهم في الحقيقة والواقع «فإن قيل فقد دخل في الإنسان الجواد الكريم فالجواب من وجوه:

---

(١) التفسير الكبير . للإمام الفخر الرازي . طبعة دار إحياء التراث العربي .بيروت – لبنان. الطبعة الثالثة . ج ٢١ ص ٦٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن . لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . طبعة دار إحياء التراث العربي . ج ١٠ ص ٣٣٥ .

الأول : أن الأصل في الإنسان البخل لأنه خلق محتاجًا والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج فثبت أن الأصل في الإنسان البخل .

الثاني: أن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل[1]» .

وقال القرطبي : « وقيل: المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى ؛ لأمرين :

أحدهما : أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته .

الثاني: أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين[2]» ، وهذا تفسير باللازم ؛ لأن نفي أن يكون جود المخلوقين جودًا كجود الله تعالى يستلزم بخلهم، وإثبات الجود المطلق لله تعالى يستلزم نفي ذلك عن المخاطبين ، لكن على هذا الوجه يكون القصر إضافيًا لإفراد المخاطبين بالبخل دون الله عز وجل ، يقول الشهاب بعد أن بين أن ﴿ أَنتُمْ ﴾ ضمير تملكون المؤخر ، وأنه في المعنى فاعل مقدم ، وتقديم الفاعل المعنوي يفيد الاختصاص إذا ناسب المقام يقول : « قيل فأفاد ترتب الإمساك على تملك الخزائن منهم دون غيرهم وهو الله ، وقيل عليه : أن الظاهر أن المعنى ترتب الإمساك على اختصاص التملك بالمخاطبين حتى لو اشترك غيرهم فيه لم يوجد منهم الإمساك لما ذكر ، يعني أنه قصر إفراد لا قلب ، ولا وجه له فإن ما ذكره القائل أبلغ وأنسب لأنهم إذا أمسكوا حين تفردهم بملكها فمع الاشتراك بالطريق الأولى[3]» .

---

(١) التفسير الكبير ج ٢١ ص ٦٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن . ج ص ٣٣٥ .

(٣) حاشية الشهاب . المسماة : عناية القاضي وكفاية الراضي . للقاضي شهاب الدين أحمد ابن محمد بن عُمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ على تفسير البيضاوي . الإمام أبي =

أقول : إذا كان الأمر كذلك فحمل المعنى على الوجه الأول أفضل لأن المقصود من الكلام ليس هو قياس جود المخاطبين بجود الله تعالى ، وإنما المقصود ـ كما يُفهم من الآيات ـ هو بيان حقيقة واقع الإنسان من حيث الإنفاق والبخل ، بأنه لو ملك خزائن نعم الله التي لا تتناهى لبخل وأمسك عن الإنفاق خشية النفاد والفقر .

هذا وقد ذكر العلماء أن المراد من ﴿ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ مقدورات نعمه تعالى ، وعلى ذلك يكون في هذا التعبير استعارة أصلية ، حيث استُعيرت الخزائن التي فيها من كل الأجناس التي لا تتناهى لمقدورات الله عز وجل من النعم ، وذلك للمبالغة في أن مقدوراته تعالى من النعم لا تتناهى ، وقد ذكر العلماء أن هذه الآية الكريمة قد بلغت «من الوصف بالشح الغاية القصوى التي لا يبلغها الوهم حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله تعالى التي لا تتناهى وانفردوا بملكها من غير مزاحم أمسكوها من غير مقتض إلا خشية الفقر، وإن شئت فوازن بقول الشاعر:

ولو أن دارك أنبتت لك أرضها إبرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قَدَّ قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة ترى التفاوت الذي لا يحصر/ وجعل غير واحد الخطاب فيها عامًا فيقتضي أن يكون كل واحد من الناس بخيلاً كما هو ظاهر ما بعد مع أنه قد أثبت لبعضهم الإيثار مع الحاجة .

وأجيب بأن ذلك بالنسبة إلى الجواد الحقيقي والفياض المطلق عز

سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد . المتوفى سنة ٦٩١ هـ . ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ عبدالرزاق المهدي طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م . ج ٦ ص ١١٢ .

مجده ، فإن الإنسان إما ممسك أو منفق ، والإنفاق لا يكون إلا لغـرض للعـاقل ، كعوض مالي أو معنوي كثناء جميل أو خدمة واستمتاع كما في النفقة على الأهل أو نحو ذلك ، وما كان لعوض كان مبادلة لا مباذلة ، أو هو بالنظر إلى الأغلب وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عـدنا فـي زماننـا عن حـديث المكارم

من كفى الناس شره فهو في جـود حاتم

وهذا الجواب عندي أولى من الأول[1]» .

وقوله تعالى : ﴿ إِذًا لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ ٱلإِنْفَاقِ ﴾ كناية عن شدة البخل ، وذلك لأن الإمساك يدل على عدم العطاء والإنفـاق ، و عـدم العطـاء والإنفاق يدل على البخل ، وهذا آكد في طريق إثبات هذا المعنى مـن أن يُقال : إذًا لبخلتم ؛ لأن الكناية تثبت المعنى بالدليل والبرهان ، فكأنه قيل : قل لم أنتم تملكون نعم الله التي لا تتناهى لبخلتم بدليل أنكم تُمسكوا المـال ولا تنفقوه خشية الفاقة .

يقول الإمام عبد القاهر موضحًا هذا المعنى : « اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تُثبتها لهذه الأجناس[2]على الكلام المتـروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعي لها في أنفُس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها.

تفسير هذا:أن ليس المعنى إذا قلنا:" الكناية أبلغ من التصريح " أنك لمَّا كنيْتَ عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت فـي إثباتـه ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد . فليست المزية في قولهم : " جم الرماد " أنه دل

---

(١) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، طبعة إحياء التراث العربي بيروت لبنان . ج ١٥ ص ١٨١ .

(٢) يقصد الكناية والتعريض والاستعارة .

على قِرًى أكثر، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبته إيجابًا هو أشدَّ ، وادَّعيته دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق[1]» .

ثم يقول موضحًا السبب في أن إثبات المعنى عن طريق الكناية أبلغ وآكد وأشد من التصريح : « أما " الكناية " فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزيَّةٌ لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه ، أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجًا غُفْلاً . وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يُشك فيه ولا يُظن بالمخبِر التجوُّزَ والغلط[2]».

ثم إنه تعالى قد أكد هذا المعنى عن طريق التذييل بقول جل وعلا : ﴿ وَكَانَ ٱلإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ أي بخيلاً مُمْسِكًا مُضيقًا ، والتعبير بصيغة (فعول) في قوله عز وجل : ﴿ قَتُورًا ﴾ يفيد أنه مبالغ في شحه مفرط فيه ، وهذا يؤكد معنى القصر الوارد في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ ٱلإِنفَاقِ ﴾ فالمغزى من هذا الأسلوب كما ذكرت سابقًا هو تأكيد أن الإنسان بخيل بطبعه مجبول على ذلك ، وقد زاد هذا التذييل الوارد في هذه الجملة ذلك تأكيدًا .

يقول البقاعي تعليقًا على قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ : « أي بخيلاً ممسكًا غاية الإمساك لإمكان أن يكون فقيرًا فلا تراه إلا مضيقًا في النفقة على نفسه ، ومَن تلزمه نفقته شديدًا في ذلك وإن اتسعت أحواله ، وزادت على الحد أمواله ، لما فيه من صفة النقص اللازمة بلزوم الحاجة

---

(١) دلائل الإعجاز . للإمام عبد القاهر الجرجاني . ص ٧١ . قرأه وعلق عليه الشيخ محمود محمد شاكر . طبعة مطبعة المدني ١٩٨٤م .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٢ .

له ، طبع على ذلك فهو في غريزته بالقوة فكلهم يفعله إلا من وفقه الله تعالى فغلب عقله على هواه وقليل ما هم! أي فإذا كان هذا أمركم فيما تملكون مع الحاجة على الوجوه المُنْفَقِ فيها فكيف تطلبون من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما لا يملكه ؟ ولا ادَّعى القدرة عليه ؟ أو من الخالق الحكيم أن يفعل ما تتعنتون به عبثًا بغير حاجة أصلاً ، لأنه إن كان إثبات قدرته فأنتم لا تمترون فيها ، وإن كان إثبات رسالة نبيكم فقد ثبت بأمور أعظمها هذا القرآن الذي مر آنفاً إقامة الدليل عليها به ، وهتك أستار شبهتكم في استبعاد كون الرسول بشرًا ، والله تعالى قد أكرمكم بنبيكم عن أن يعاجلكم بالاستئصال عند العصيان بعد كشف الغطاء كما جرت به سنته في جميع الأمم ، وإن كان لإثبات غناكم فهو شيء لا يغني نفوسكم فيردها عن طلب المزيد وعن التقتير لما طُبعتم عليه ، بل تكونون عند حصول ذلك لكم لحصول الغنى كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وهو أنه قد قضى أنه يظهر أمره على كل من ناوأه وإن كره الكافرون ، وقد علم من يؤمن فييسر له الإيمان ويجعله عونًا لحزب الرحمن ، ومن لا يؤمن فهو يجعله مع أولياء الشيطان ، ويذيق الكل الهوان ، ويجعلهم وقودًا للنيران ، فلم يبق بعد هذا كله في إجابتكم إلى تعنتكم إلا العبث الذي هو سبحانه متعال عنه ، فلا وجه يحصل به الإنسان الغني إلا اتباع السنة والانسلاخ عن الهوى فمن وصل إلى ذلك استوى عنده الذهب والحصباء[1]» .

الثاني : ورد في سورة المعارج في سياق يقول : ﴿ إِنَّ ٱلإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (المتوفى ٨٨٥ هـ) . خرج آياته وأحاديثه ووضع هوامشه عبد الرزاق غالب المهدي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م . ج٤ ص ٤٣٠ .

ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ...﴾ [المعارج /١٩ : ٢٣] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن أن الإنسان خُلق وهو مجبول على الهلع أي الجزع والحرص والضجر إذا قَلَّ ماله وأصابه الفقر والعدم ، وأنه إذا كثر ماله وناله الغنى فهو بخيل شحيح لا يؤدي حق الله تعالى في ماله ولا ينفقه في طاعته ، وقد استثنى الله عز وجل من ذلك المصلين الذين يؤدون الصلاة في وقتها ، وقد نقل القرطبي عن العلماء جملة من الآراء في بيان معنى الهلع والجزع حيث يقول : « والهلعَ في اللغة : أشدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه . وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما . وقد هَلِع (بالكسر) يَهْلَع فهو هَلِع وهَلُوع ، على التكثير. والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شرّ حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي . عِكرمة : هو الضَّجور. الضحاك : هو الذي لا يشبع . والمنوع : هو الذي إذا أصاب المال منع منه حقّ الله تعالى . وقال ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يسرّه ويرضيه ، ويهرب مما يكرهه ويسخطه، ثم تَعَبّده الله بإنفاق ما يحبّ والصبر على ما يكره . وقال أبو عبيدة : الهَلُوع هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر ، وإذا مسّه الضر لم يصبر ، قاله ثعلب . وقال ثعلب أيضًا : قد فسّر الله الهَلُوع ، وهو الذي إذا ناله الشر أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله الخير بَخِل به ومنعه الناس[1]» .

وقد ذكر العلماء أن (أل) في ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ تفيد الجنس ولكن المراد هنا الكافر ؛ لأن الله تعالى قد استثنى المصلين ، يقول ابن عطية : « ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ عموم لاسم الجنس لكن الإشارة هنا إلى الكفار لأن الأمر فيهم وكيد كثير[2]» .

وتأكيد هذا الخبر الوارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٤٨١ ــ ٥٤٦) تحقيق المجلس العلمي بفارس . ج ١٦ ص ١١٣ .

هَلُوعًا ﴾ بـ (إِنَّ) « لمجرد الاهتمام بالخبر ولفت الأنظار إليه والتعريض بالحذر منه[1]» .

وبناء لفظ ﴿ هَلُوعًا ﴾ و ﴿ جَزُوعًا ﴾ و ﴿ مَنُوعًا ﴾ على صيغة المبالغة (فعول) للدلالة على أن الإنسان الكافر يبالغ في الجزع والحرص والضجر إذا قل ماله وأصابه الفقر والعدم ، وأنه يبالغ في البخل والشح إذا كثر ماله ، والمقصود المبالغة في وصف هذا الإنسان بأنه لا يصبر على الشر والخير ، وقد عُبر بـ ﴿ إِذَا ﴾ لتحقق وقوع هذا الأمر منه .

المراد من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ هو وصف هذا الإنسان بأن شديد البخل إذا كثر ماله وناله الغنى ، ولكن الآية لم تُعبر عن هذا المعنى تعبيرًا صريحًا ، بل ذكرت أنه إذا مسه الخير منع حق الله تعالى فيه ، ولم ينفقه في طاعته ، وهذا كناية عن صفة وهي بخله الشديد ، وهذه الكناية في هذا المقام أبلغ من التصريح ؛ لما فيها من المبالغة في طريق إثبات هذا المعنى بالدليل والبرهان ، أي كأنه قيل : إن هذا الإنسان شديد البخل بدليل أنه إذا أصابه مال منع حق الله فيه ولم ينفقه في طاعته ومنعه الناس ، وهذا أبلغ وآكد في إثبات هذا المعنى كما ترى .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده قال : « حدثنا عبد الله ، حدثني أبي حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا موسى يعني ابن علي سمعت أبي يحدث عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : " شَرٌّ ما في رَجُلٍ شُحٌّ هالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ "[2]» .

هذا وقد عُطفت جملة ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ على جملة ﴿ إِذَا

---

(١) التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور ، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع . تونس . ج ٢٩ ص ١٦٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد . لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي . نشر دار إحياء التراث العربي . حديث رقم ٨٢١٥ . ورواه أبو داود في سننه. سنن أبي داوود لسليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني . طبعة دار إحياء التراث العربي . حديث رقم ٢٥١٢

مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ لأن المتحدَث عنه في الجملتين واحد وهو الإنسان الكافر ، ويوجد تضاد بين الخير والشر ، وبين الجزع والمنع تماثل حيث إن كلاً منهما من الصفات المذمومة التي يتصف بها الكافر ، يضاف إلى ذلك اتفاق هاتين الجملتين في الخبرية ، لذا عُطفت الثانية على الأولى لما بينهما من التوسط بين الكمالين .

المبحث الثاني : بخل المشركين

اليهود أبخل الناس :

لقد ورد العبير عن هذا المعنى في موضعين :

الأول : ورد في سورة النساء في سياق يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّـهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء/ ٥١ : ٥٥] .

يقول الرازي موضحًا علاقة قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ بما قبله : « اعلم أنه تعالى وصف اليهود في الآية المتقدمة بالجهل الشديد ، وهو اعتقادهم أن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى ، ووصفهم في هذه الآية بالبخل والحسد ، فالبخل هو أن لا يدفع لأحد شيئًا مما آتاه الله من النعمة ، والحسد هو أن يتمنى أن لا يعطي الله غيره شيئًا من النعم ، فالبخل والحسد يشتركان في أن صاحبه يريد منع النعمة من الغير ، فأما البخيل فيمنع نعمة نفسه عن الغير ، وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله من عبادة ، وإنما قدم تلك الآية

على هذه الآية لأن النفس الإنسانية لها قوتان : القوة العالمة والقوة العاملة، فكمال القوة العالمة العلم ، ونقصانها الجهل ، وكمال القوة العاملة : الأخلاق الحميدة ، ونقصانها الأخلاق الذميمة ، وأشد الأخلاق الذميمة نقصانًا البخل والحسد ، لأنهما منشآن لعود المضار إلى عباد الله[1]» .

بعد أن عجَّب عز وجل كل من يتأتى منه الخطاب مِن اليهود الذين يعبدون كل باطل من دون الله ... ، أشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد ﴿ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ للدلالة على بُعدهم في الضلال ، وأنهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من الطرد من رحمة الله تعالى ، وأنهم لا ناصر لهم ينصرهم من عذاب الله .

أقول : بعد أن بين تعالى حالهم تلك ، أنكر عليهم بخلهم الشديد لأنهم لو كان لهم مقدار نقير من الملك ــ أي مقدار النقطة التي تكون في ظهر النواة ، أو في وسطها ، أو الحبة التي تكون في وسطها ، قال ابن عطية : « وهذا كله يجمعه أنه كناية عن الغاية في الحقارة والقلة على مجاز العرب واستعارتها[2]» ــ لَمَا أتوا أحدًا مقدار هذا النقير ، قال جل وعلا : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ، وعلى ذلك تكون ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة بمعنى بل ، والهمزة تفيد إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ، أي ليس لهم من الملك شيء .

ويجوز أن تكون ﴿ أَمْ ﴾ متصلة بالكلام السابق فتفيد العطف ، يقول الرازي موضحًا المعنى على هذا الوجه : « ﴿ أَمْ ﴾ ههنا متصلة ، وقد سبق ههنا استفهام على سبيل المعنى ، وذلك لأنه تعالى لما حكى عن

---

(١) التفسير الكبير ج ١٠ ص ١٢٩ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٤ ص ١٥٢ .

هؤلاء الملعونين قولهم للمشركين : إنهم أهدى سبيلا من المؤمنين ، عطف عليه بقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ ﴾ فكأنه تعالى قال : أمن ذلك يتعجب، أم من قولهم : لهم نصيب من الملك ، مع أنه لو كان لهم ملك لبخلوا بأقل القليل[1] » ، ويزيد أبو السعود المعنى على هذا الوجه وضوحًا فيقول : « ويجوز أن لا تكون الهمزةُ لإنكار الوقوعِ بل لإنكار الواقعِ والتوبيخِ عليه، أي لعدِّه مُنكرًا غيرَ لائقٍ بالوقوع ، على أن الفاءَ للعطف ، والإنكارُ متوجهٌ إلى مجموع المعطوفَين على معنى ألهمْ نصيبٌ وافرٌ من الملك حيث كانوا أصحابَ أموالٍ وبساتينَ وقصورٍ مَشيدةٍ كالملوك فلا يؤتون الناسَ مع ذلك نقيرًا كما تقول لغنيَ لا يراعي أباه : ألك هذا القدرُ من المال فلا تُنفقُ على أبيك شيئًا ؟ وفائدةُ (إذن) تأكيدُ الإنكارِ والتوبيخِ حيث يجعلون ثبوتَ النصيبِ سببًا للمنع مع كونِه سببًا للإعطاء [2]» .

هذا ، وقد رجح الزمخشري الرأي الأول لأنه أبلغ في وصفهم بالشح فضلاً عن أن له نظائر تُطابقه في القرآن الكريم يقول : « وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شرّ خصلتين : يمنعون ما أُوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم فقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ على أن أم منقطعة ومعنى الهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ثم قال : ﴿ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ ﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذًا لا يؤتون أحدًا مقدار نقير لفرط بخلهم والنقير: النقرة في ظهر النواة وهو مَثَلٌ في القِلة ، كالفتيل والقطمير.

والمراد بالمُلك : إما مُلك أهل الدنيا . وإما مُلك الله كقوله تعالى : ﴿ قُل

---

(١) التفسير الكبير ج ١٠ ص ١٣٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العَمادي الحنفي . المتوفى سنة ٩٨٢ هـ . وضع حواشيه عبداللطيف عبدالرحمن . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ /١٩٩٩ م . ج ٢ ص ١٥٠ .

لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [الإسراء/ ١٠٠] وهذا أوصف لهم بالشح ، وأحسن لطباقه نظيره من القرآن . ويجوز أن يكون معنى الهمزة في ﴿ أَمْ ﴾ : لإنكار أنهم قد أوتوا نصيبًا من الملك ، وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كما تكون أحوال الملوك . وأنهم لا يؤتون أحدًا مما يملكون شيئًا[1]» .

وقد ذكر القرطبي وجهًا آخر غير هذين الوجهين وهو أن تكون الهمزة للإنكار والميم صلة يقول : « قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي ألَهم ؟ والميم صلة . ﴿ نَصِيبٌ ﴾ حظ من الملك وهذا على وجه الإنكار؛ يعني ليس لهم من المُلك شيء ، ولو كان لهم منه شيء لم يُعطوا أحدًا منه شيئًا لبخلهم وحسدهم[2]» .

و ذكر الزمخشري أن ابن مسعود قرأ (فإذًا لا يؤتوا) يقول : « وقرأ ابن مسعود : (فإذًا لا يؤتوا) ، على إعمال إذا عملها الذي هو النصب، وهي ملغاة في قراءة العامة ، كأنه قيل : فلا يؤتون الناس نقيرًا إذًا[3]» .

وهكذا تجد أن المقصود من هذه الآية الكريمة هو وصف اليهود بالبخل الشديد والشح المفرط ، لكنها لم تُعبر عن هذا المعنى تعبيرًا صريحًا، بل أنكرت أن يكون لهم نصيب من الملك لأنهم لو كان لهم نصيب من الملك فإنهم لا يعطون أحدًا منه شيئًا البتة حتى ولو كان مقدار نقير وهو ما يضرب به المَثَلُ في القِلة والحقارة ، وهذا كناية عن صفة ،

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٤٦٧ ــ ٥٣٨ هـ) . رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥ م . ج ١ ص ٥١١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٥١١ .

وهي البخل الشديد والشح المفرط ، وهذا أبلغ من وصفهم بذلك وصفًا صريحًا .

الثاني : جاء في سورة المائدة في سياق يقول : « ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ » [المائدة / ٦٤] .

يقول الطبري : « وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن جراءة اليهود على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته ، توبيخًا لهم بذلك وتعريفًا منه نبيه ﷺ قديمَ جهلهم واغترارهم به وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم إجرامهم واحتجاجًا لنبيه محمد ﷺ بأنه له نبيّ مبعوث ورسول مرسل أن كانت هذه الأنباء التي أنبأهم بها كانت من خفيّ علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود فضلاً عن الأمة الأمية من العرب الذين لم يقرأوا كتابًا ولا وَعَوْا من علوم أهل الكتاب علمًا فأطلع الله على ذلك نبيه محمدًا ﷺ ليقرّر عندهم صدقه ويقطع بذلك حجتهم[1]» .

وقد ذكر أهل التأويل نقلاً عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة نزلت في فنحاص اليهودي : « وقال مقاتل : فيه وفي ابن صوريا ، وعازر بن أبي عازر قالوا ذلك . ونسب ذلك إلى اليهود ، لأن هؤلاء

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن . لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . المتوفى سنة ٣١٠ هـ . طبعة دار الفكر . بيروت ــ لبنان ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م . ج ٦ ص ٢٩٩.

علماؤهم وهم أتباعهم في ذلك[1]» .

وقد أراد اليهود عليهم اللعنة بقولهم فيما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ وصف الله ــ تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ــ بالبخل وإمساك العطاء عنهم والتضييق عليه ، فعبروا عن ذلك بطريق الكناية ، يقول الزمخشري :«غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء/ ٢٩] ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازًا عنه لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة ، حتى أنه يستعمله في مَلِكٍ لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا : ما أبسط يده بالنَّوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود ، وقد استعملوهما حيث لا تصحّ اليد كقوله :

جَادَ الْحِمَى بَسْطُ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرَتْ نَدَاهُ تِلاَعُه وَوِهَادُهُ

ولقد جعل لبيد للشمال يداً في قوله :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا

ويقال بسط اليأس كفيه في صدري ، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان . ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا

---

(١) البحر المحيط . لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ ــ ٧٥٤ هـ) طُبع بعناية الشيخ عرفات العَشا حسونة ، وصدقي محمد جميل ، والشيخ زهير جعَيد . طبعة المكتبة التجارية . مكة المكرمة . ج ٤ ص ٣١٢ ، ٣١٤ .

عبثت به[1]» ، وقد ذكر أبو السعود أن هذا« أصله كناية فيمن يجوز عليه إرادة المعنى الحقيقي[2]» .

ثم إن هذه الجملة تثير سؤالاً تقديريًا عامًا عن غير العلة والسبب تقديره : بماذا رد الله تعالى على اليهود هذا القول الشنيع وتلك الكبيرة العظيمة ؟ الجواب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وعلى ذلك يكون سر فصل الجملة الثانية عن الأولى هو شبه كمال الاتصال،وذلك إذا كانت جملة ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ خبر من الله عنهم ، أما إذا كانت جملة دعائية ، فيكون سر الفصل هو كمال الانقطاع لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاء ، يقول ابن عطية : « وقوله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم ، ويحتمل أن يكون خبرًا ، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا وأن يراد به الآخرة ، وإذا كان خبرًا عن الدنيا فالمعنى غُلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه ، وإذا كان خبرًا عن الآخرة فالمعنى غُلت في نار جهنم أي حتم هذا عليهم ونفذ به القضاء كما حتمت عليهم اللعنة بقولهم هذا وبما جرى مجراه[3]» .

وقد بُني الفعل للمجهول « إفادة لتحتم الوقوع وتعليمًا لنا كيف ندعو عليهم[4]» ، يقول ابن كثير : « وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُمْ... ﴾[النساء:٥٣ :٥٥] الآية، وقال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٦٤١ ، ٦٤٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٥ ص ١٤٩ .

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢ ص ٤٩٧ .

عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:٢١١] الآية [١]» ، ومن ثم كما ذكر الزمخشري كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم .

ثم إنه لم يُدع عليهم بهذا فحسب بل عُطف على ذلك قوله جل وعلا: ﴿ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ ، فقد عُطفت الجملة الثانية على الأولى لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، حيث إن المُتَحَدَّثَ عنهم في الجملتين واحد ، فضلاً عن تلاقي الجملتين في الدعاء عليهم بالنكد والبخل والطرد من رحمة الله تعالى ، وقد بُني الفعل للمجهول لتحتم وقوع ذلك كما هو الشأن في الجملة السابقة،يقول النيسابوري:« قال الحسن : عُذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار. ومما وقع في عصرنا من إعجاز القرآن ما حكي أن متغلب من اليهود مسمى بسعد الدولة وهو من أشقى الناس كان قد سمع بهذه الآية ، فاتفق أن وصل إلى بغداد فنزل بالمدرسة المستنصرية ودعا بمصحف كان مكتوبًا بأحسن خط وأشهره من خطوط الكُتّاب الماضين ، وكان يعلم أن أهل هذا العصر لا يقدرون على كتابة مثله ثم قال: أين هذه الآية يعني قوله: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ فأروه إياها فمحاها، فلم يمض أسبوع إلاّ وقد سخط السلطان عليه فبعث في طلبه وأمر بغل يديه فغلوه وحملوه إليه فأمر بقتله[٢]» .

ثم إنه تعالى قد أثبت ما نفاه اليهود ــ عليهم اللعنة ــ حيث قال :

---

(١) تفسير القرآن العظيم : للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي . تحقيق سامي بن محمد السلامة . طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م . ج ٣ ص ١٤٦ .

(٢) تفسيرغرائب القرآن ورغائب الفرقان . للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري . المتوفى سنة ٧٢٨ هـ . ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات. طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م . ج ٢ ص٦١٤.

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ .

لقد ذكر العلماء في تفسير هذا المعنى أكثر من وجه ، فمنهم من ذكر أن المراد نعمتاه ، أي نعمة الدنيا ونعمة الآخرة ، أو النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة ، أو نعمة المطر ونعمة النبات ، ومنهم من ذكر أن المراد بذلك القوة ، ومنهم من قال : المراد ملكه وخزائنه ، ومنهم من قال بل اليد صفة من صفات الله ، ولكنها ليست بجارحة كجوارح بني آدم (١).

يقول ابن عطية : « العقيدة في هذا المعنى نفي التشبيه عن الله تعالى وأنه ليس بجسم ولا له جارحة ولا يُشَبَّه ولا يُكَيَّفَ ولا يتحيز في جهة كالجواهر ولا تحله الحوادث تعالى عما يقول المبطلون .

ثم اختلف العلماء فيما ينبغي أن يُعتقد في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ ﴾ وفي قوله : ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] و ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾[يس:٧١] ، ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح/١٠] و﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[طه/٣٩] ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر/١٤] و ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور/٤٨] و ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص/٨٨] ونحو هذا ، فقال فريق من العلماء منهم الشعبي وابن المسيب وسفيان يُؤمن بهذه الأشياء وتقرأ كما نصها الله ولا يُعن لتفسيرها ولا يُشقق النظر فيها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول يضطرب لأن القائلين به يُجمعون على أنها ليست على ظاهرها في كلام العرب فإذا فعلوا هذا فقد نظروا وصار السكون عن الأمر هذا مما يوهم العوام ويتيه الجهلة .

وقال جمهور الأمة : بل تُفسر هذه الأمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب. فقالوا في العين والأعين إنها عبارة عن العلم والإدراك ، كما يقال فلان من فلان بمرأى ومسمع ، إذا

---

(١) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٦ ص ٢٩٩ وما بعدها .

كان يُعني بأموره وإن كان غائبًا عنه ، وقالوا في الوجه إنه عبارة عن الذات وصفاتها ، وقالوا في اليد واليدين والأيدي إنها تأتي مرة بمعنى القدرة كما تقول العرب لا يد لي بكذا ، ومرة بمعنى النعمة كما يقال لفلان عند فلان يد ، وتكون بمعنى الملك كما يقال يد فلان على أرضه ، وهذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عبر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين استعمالاً لفصاحة العرب ولما في ذلك من الإيجاز، وهذا مذهب أبي المعالي والحذاق ، وقال قوم من العلماء منهم القاضي ابن الطيب : هذه كلها صفات زائدة على الذات ثابتة لله دون أن يكون في ذلك تشبيه ولا تحديد وذكر هذا الطبري وغيره، وقال ابن عباس في هذه الآية ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ نعمتاه،...[1]» .

على تفسير ابن عباس بأن ﴿ يَدَاهُ ﴾ بمعنى نعمتاه ، يكون المقصود من تثنية اليد تثنية جنس لا تثنية مفرد لأن نعمه تعالى لا تحصى كما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم/ ٣٤] ، وقد بين الزمخشري سر هذه التثنية حيث قال : « فإن قلت: لم ثنيت اليد في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ وهي مفردة في ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ؟ قلت : ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه . وذلك أنّ غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعًا فبني المجاز على ذلك[2]» ، وقد روى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثنا عليُّ بن عبد الله حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعمر عن همام حدَّثنا أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: " إنَّ يمينَ اللهَ ملأى لا يغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفَقَ منذُ خلقَ السماوات والأرضَ فإنه لم ينقص ما في

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٥ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٦٤٣ .

يمينِهِ، وعرشه على الماء، وبيدِهِ الأخرى الفيض ــ أو القبض ــ يرفع ويخفِض"[(١)]» .

ثم إنه تعالى قد أكد هذا المعنى وهو كمال جوده بقوله: ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ، فضلاً عن التنبيه « على سرٍّ ما ابتلوا به من الضيق الذي اتخذوه من غاية جهلهم وضلالِهم ذريعةً إلى الاجتراء على تلك الكُفْرة العظيمة ، والمعنى أن ذلك ليس لقصور في فيضه ، بل لأن إنفاقه تابعٌ لمشيئته المبنيَّة على الحُكم التي عليها يدورُ أمرُ المعاش والمعاد ، وقد اقتضتِ الحكمةُ بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيِّقَ عليهم كما يشير إليه ما سيأتي من قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ الآية [المائدة/ ٦٦][(٢)]» .

وقد أكد عز وجل قوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ بالقسم واللام ونون التوكيد الثقيلة ، لدفع إنكار من ينكر من اليهود أن ما ينزل على رسول الله ﷺ يزيدهم كفرًا على كفرهم وطغيانًا على طغيانهم بسبب فرط عنادهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله ﷺ « وفي هذا إياس من توبتهم وتأكيد لعداوتهم وزجر عن موالاتهم ومودتهم،

---

(١) صحيح البخاري . لأبي عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، نشر دار إحياء التراث العربي . حديث رقم ٧٢٥٣ . ونص هذا الحديث في صحيح مسلم : « وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ . حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ . حَدَّثَنَا مَعمَرُ بْنُ رَاشِدٍ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَخِي وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، قَالَ : هَـٰذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللّـه . فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا. وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهَ : " إِنَّ اللّه قَالَ لِي : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ " . وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : " يَمِينُ اللّهِ مَلآى. لاَ يَغِيضُهَا سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارُ. أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ " . قَالَ: " وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ الْقَبْضُ ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ " » صحيح مسلم . لأبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . نشر دار الكتب العلمية ١٩٩٢ م . حديث رقم ٢٢٦٢.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٢ ص ٢٩٥ .

أي إنهم لا يزدادون بحسن وعظم وجميل تلاوتك عليهم الآيات إلا شقاقًا ما وجدوا قوة ، فإن ضعفوا فنفاقًا[1]».

ثم إن في إسناد زيادة كثير من اليهود طغيانًا وكفرًا إلى ﴿ مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي إلى آيات القرآن ، مجازًا عقليًا ، المغزى منه المبالغة في بيان قوة هذا السبب في فرط طغيانهم وكفرهم ، وعنادهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله ﷺ .

أما إضافة ضمير رسول الله ﷺ إلى لفظ الرب في قوله جل وعلا: ﴿ مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ففيه ما لا يخفى من التعظيم والتشريف لرسول الله ﷺ .

ثم إنه تعالى بعد أن بين أن ما أنزل على رسول الله ﷺ من القرآن لا يزيدهم إلا كفرًا وطغيانًا ، أتبع ذلك بأن قلوبهم شتى لا يقع بينهم اتفاق ولا تعاضد ، وذلك لنفي ما قد يُتوهم أن طغيانهم وكفرهم يكيد المسلمين ويضرهم فقال جل وعلا : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ ، وقد ذكر العلماء أن ﴿ بَيْنَهُمُ ﴾ يعود على اليهود والنصارى ، أو يعود على اليهود لأنهم فرق وطوائف متباغضة ، لا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق قلوبهم ، « و (العداوة) أخص من (البغضاء) لأن كل عدو فهو يبغض وقد يبغض من ليس بعدو، وكأن العداوة شيء مشتهر يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النفوس ، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل[2]».

ويقول البقاعي : « ولما كانت العداوة - وهي أي يعدون بعضهم إلى أذى بعض - ربما زالت بزوال السبب ، أفاد أنها لازمة لا تنفك بقوله:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٥ ص ١٥١ .

﴿ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ أي لأمور باطنية وقعت في قلوبهم وقوع الحجر الملقى من علو ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ [1]» .

ثم إنه عز وجل بعد أن بين وهنهم وأنهم لا يمكن أن يصل ضررهم وكيدهم إلى المسلمين ، بين أنهم ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ ، ذكر جمهور المفسرين أن هذا المعنى استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال اليهود في حقدهم وكيدهم ومناهضتهم للمؤمنين وإجماع أمرهم على قتالهم ورد الله عز وجل لهم وقهرهم وتشتيت أمرهم وقذف الرعب في قلوبهم ، بحال من يوقد نارًا ويسعرها فتنطفئ ، ثم حذفت صورة المشبه واستعير لها صورة المشبه به ، يقول أبو حيان بعد أن أشار إلى أن هناك قومًا قد حملوا هذا المعنى على أنه حقيقة لا استعارة : « وقال الجمهور: هو استعارة ، وإيقاد النار عبارة عن إظهار الحقد والكيد والمكر بالمؤمنين والاغتيال والقتال ، وإطفاؤها صرف الله عنهم ذلك ، وتفرّق آرائهم ، وحل عزائمهم وتفرّق كلمتهم ، وإلقاء الرعب في قلوبهم . فهم لا يريدون محاربة أحد إلا غلبوا وقهروا ، ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد، وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس . وقيل : خالفوا اليهود فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم بطريق الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين . وقال قوم : هذا مثل ضرب لاجتهادهم في المحاربة ، والتهاب شواظ قلوبهم ، وغليان صدورهم . ومنه الآن حمى الوطيس للجد في الحرب ، وفلان مسعر حرب يهيجها ببسالته ، وضرب الإطفاء مثلاً لإرغام أنوفهم وخذلانهم في كل موطن . قال مجاهد : هي تبشير للرسول بأنهم كلما حاربوه نُصر عليهم ، وإشارة إلى حاضريه من اليهود . وقال

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢ ص ٤٩٨ .

السدّي والربيع وغيرهما: هي إخبار عن أسلافهم منذ عصور هدّ الله ملكهم ، فلا ترفع لهم راية إلى يوم القيامة ، ولا يقاتلون جميعًا إلا في قرى محصنة . وقال قتادة : لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذلّ الناس[1]».

قول أبي حيان : « وضرب الإطفاء مثلاً لإرغام أنوفهم وخذلانهم في كل موطن » يُفهم منه أن جملة ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ ﴾ استعارة ، وجملة ﴿ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ استعارة أخرى ، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب التحرير والتنوير حيث يقول : « تركيب ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ تمثيل ، شُبّه به حال التهيّؤ للحرب والاستعداد لها والحَزَامةِ في أمرها ، بحال من يُوقد النّار لحاجة بها فتنطفىء ، فإنّه شاعت استعارات معاني التسعير والحَمْي والنّار ونحوها للحرب ، ومنه حَمِيَ الوَطيس ، وفلان مِسْعَرُ حرب ، ومِحَشّ حرب ، فقوله : ﴿ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ ﴾ كذلك ، ولا نارَ في الحقيقة ، إذ لم يُؤْثر عن العرب أنّ لهم نارًا تختصّ بالحرب تُعَدّ في نِيرَان العرب الّتي يُوقِدُونها لأغراض. وقد وهم من ظنّها حقيقة ، ونبّه المحقّقون على وهمه .

وشبّه حال انحلال عزمهم أو انهزامُهم وسرعةُ ارتدادهم عنها ، وإحجامُهم عن مصابحة أعدائهم ، بحال من انطفأت ناره الّتي أوقدها .

ومن بداعة هذا التمثيل أنّه صالحٌ لأن يعتبر فيه جَمْعُه وتفريقه ، بأن يُجعل تمثيلاً واحداً لِحالة مجموعة أو تمثيلين لحالتين ، وقبول التمثيل للتفريق أتمّ بلاغة[2]» .

أقول : إن ما ذهب إليه هذان العلمان الجليلان من أن قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ يصح حمله على أنه استعارتان ،

---

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

يُذهب بجمال هذا التصوير المبدع الغريب لحال اليهود في حقدهم وكيدهم ومناهضتهم للمؤمنين وإجماع أمرهم على قتالهم ورد الله عز وجل لهم وقهرهم وتشتيت أمرهم وقذف الرعب في قلوبهم ، لأن المقصود هو هذه الهيئة مجتمعة .

يقول البقاعي : « وأصل استعارة النار لها ما في كل منهما من التسلط والغلبة والحرارة في الظاهر والباطن ، مع أن المحارب يوقد النار في موضع عال ليجتمع إليه أنصاره ، ولقد قام لعمري دليل المشاهدة على صدق ذلك بغزوة قينقاع ثم النضير ثم قريظة ، والقبائل الثلاث بالمدينة لم يتناصروا ولم ينصروا ، ثم غزوة خيبر وأهل فدك ووادي القرى وهم متقاربون ولم يتناصروا ولم ينصروا ، هذا فيما في خاصتهم ، وأما في غير ذلك فقد ألبّوا الأحزاب وجمعوا القبائل وأتقنوا في أمرهم على زعمهم المكايد ، ثم أطفأ الله نارهم حسًا ومعنى بالريح والملائكة ، وألزمهم خزيهم وعارهم وجعل الدائرة عليهم ، وساق جيش المنون على أيدي المؤمنين إليهم[1]» .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ، فقد تعرضنا له بالتحليل في مقام حديثنا عن سر تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي[2] .

بخل المشركين بالعلم أو المال

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضعين :

الأول : جاء في سورة النساء في سياق يقول : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢ ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

(٢) ينظر كتابنا (تقديم المسند إليه في القرآن الكريم على الخبر الفعلي في النفي) الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م طبعة دار الهاني للطباعة والنشر . ص ١٧٦ وما بعدها .

بِهِ شَيْئًا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء/٣٦: ٣٧] .

لقد اختلف أهل التأويل في بيان نوع البخل المذكور في هذا الموضع هل هو بخل بالعلم أم بخل بالمال ؟ ، وقد اختلفوا أيضًا في المَعْنِي بـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ فقيل اليهود ، وقيل المؤمنون ، وقيل المنافقون ، وقيل مشركو مكة .

فقد نقل الطبري عن مجاهد ، وقتادة ، والسُّدي ، وسعيد بن جبير ، أنهم اليهود الذين كتموا اسم رسول الله ﷺ وصفته ولم يبينوه للناس ، يقول بعد أن عرض رأي هؤلاء العلماء : « فتأويل الآية على التأويل الأول[1]: والله لا يحبّ ذوي الخيلاء والفخر الذين يبخلون بتبيين ما أمرهم الله بتبيينه للناس من اسم محمد ـ ﷺ ـ ونعته وصفته التي أنزلها في كتبه على أنبيائه ، وهم به عالمون، ويأمرون الناس الذين يعلمون ذلك ، مثل علمهم بكتمان ما أمرهم الله بتبيينه لهم ، ويكتمون ما آتاهم الله من علم ذلك ومعرفته من حرم الله عليه كتمانه إياه[2]» .

و يَروِي عن ابن زيد وابن عباس ، أنهم اليهود الذين يبخلون بالمال والعلم ، يقول : « حدثني يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ قال : هؤلاء يهود ، وقرأ : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ قال : يبخلون بما آتاهم الله

---

(١) يقصد على تأويل العلماء الذين قد أشرت إليهم .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٥ ص ٨٦ .

من الرزق ، ويكتمون ما آتاهم الله من الكتب ، إذا سئلوا عن الشيء وما أنزل الله كتموه . وقرأ : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء/٣٥] من بخلهم.

حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف ، وأسامة بن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ، وبحري بن عمرو، وحيّ بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، يأتون رجالاً من الأنصار ، وكانوا يخالطونهم ، يتنصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون فأنزل الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : من النبوّة التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا إلى قوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِم عَلِيمًا ﴾[النساء/٩٣][(١)]».

وذكر القرطبي أنه « قيل: المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهُم تَقِيَّة [(٢)]» .

وذكر أبو حيان أنه قيل أنها « نزلت في مشركي مكة [(٣)]» .

وقال الرازي بعد أن ذكر رأي ابن عباس ، ورأي من قال المراد منه البخل بالمال : « والقول الثالث : أنه عام في البخل بالعلم والدين ، وفي البخل بالمال ، لأن اللفظ عام ، والكل مذموم ، فوجب كون اللفظ

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٥ ص ٨٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ١٩٣ .

(٣) البحر المحيط ج ٣ ص ٦٣٤ .

متناولاً للكل[1]» .

وقد ذكر أبو حيان أن العلماء قد « اختلفوا في إعراب ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ، فقيل :هو في موضع نصب بدل من قوله: ﴿ مَن كَانَ ﴾ وقيل: من قوله : ﴿ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ . أفرد اسم كان ، والخبر على لفظ من ، وجمع الذين حملاً على المعنى . وقيل : انتصب على الذم. ويجوز عندي أن يكون صفة لمن ، ولم يذكروا هذا الوجه . وقيل : هو في موضع رفع على إضمار مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين . وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون بدلاً من الضمير في فخورًا وهو قلق . فهذه ستة أوجه يكون فيها الذين يبخلون متعلقًا بما قبله ويكون الباخلون منفيًا عنهم محبة الله تعالى، وتكون الآية إذن في المؤمنين ، والمعنى : أحسنوا أيها المؤمنون إلى من سمى الله ، فإن الله لا يحب من فيه الخلال المانعة من الإحسان إليهم وهي: الخيلاء والفخر، والبخل، والأمر به وكتمان ما أعطاهم الله من الرزق والمال.

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ في موضع رفع على الابتداء واختلفوا في الخبر: أهو محذوف ؟ أم ملفوظ به ؟ فقيل : هو ملفوظ به وهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا﴾ [النساء /٤٠] ويكون الرابط محذوفًا تقديره : مثقال ذرة لهم ، أو لا يظلمهم مثقال ذرة . وإلى هذا ذهب الزجاج ، وهو بعيد متكلف لكثرة الفواصل بين المبتدأ والخبر ، ولأن الخبر لا ينتظم مع المبتدأ معناه : انتظامًا واضحًا لأنّ سياق المبتدأ وما عطف عليه ظاهرًا من قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلاَ بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ﴾ [النساء / ٣٨] ، لا يناسب أن يخبر عنه بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن

---

(١) التفسير الكبير ج ١٠ ص ٩٩ .

لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء / ٤٠] ،بل مساق أنّ الله لا يظلم أن يكون استئناف كلام إخبارًا عن عدله وعن فضله تعالى وتقدس. وقيل: هو محذوف فقدره الزمخشري : الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة . وقدره ابن عطية : معذبون أو مجازون ونحوه . وقدره أبو البقاء : أولئك قرناؤهم الشيطان، وقدره أيضًا :مبغضون .ويحتمل أن يكون التقدير: كافرون[1]» .

أقول : على رأي من يجعل ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف يكون سر حذف المسند إليه هو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أي الاحتراز من ذكر ما تدل عليه القرينة ، وهو ذكرهم قبل ذلك في قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ ، وعلى هذا الوجه يكون المراد بالكفر في قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ هو كفر النعمة .

أما على رأي من يجعل ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ مبتدأ لخبر محذوف ، يكون سرّ حذف المسند هو أن تذهب فيه النفس كل مذهب من البغض ، أو اللوم ، أو العذاب ، أو الكفر ، وعلى هذا الوجه يكون المراد من الكفر في قوله جل ثناؤه:﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ هو الكفر الحقيقي ، وتكون الآية في اليهود ؛ وذلك لبخلهم بكتمان صفة رسول الله ﷺ ، وأمرهم أتباعهم بذلك .

هذا ، فضلاً عن أن السر في تعريف المسند إليه باسم الموصول على هذا الوجه هو الإيماء إلى وجه بناء الخبر بأنه من جنس العذاب ، أو الكفر ، أو البغض ، أو اللوم ، يقول الألوسي : « وفرق الطيبي بين كونه خبرًا ومبتدأ بأنه على الأول : متصل بما قبله لأن هذا من جنس

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٦٣٥ ، ٦٣٦.

أوصافهم التي عرفوا بها ، وعلى الثاني : منقطع جيء به لبيان أحوالهم ، وذكر أن الوجه الاتصال[1]» .

ثم إنه قد عُطف على هذه الجملة قوله تعالى: ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ وهذا هو نهاية البخل كما يقول الرازي ، وقوله :﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ لاتفاقها في الخبرية ، فضلاً عن أن المتحدث عنهم في الجمل الثلاث واحد ،فبينهما توسط بين الكمالين.

هذا : وسياق الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وأعتدنا لهم عذابًا مهينًا ، ولكن عُدل عن ذلك وَوُضِعَ المظهر ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ موضع المضمر (لهم) « إشعارًا بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله ، ومَن كان كافرًا لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء ، .... والجملة اعتراض تزييلي مقرر لما قبله[2]» . أي أنها معترضة بين جملة ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ وجملة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾[النساء / ٣٨] .

وتنكير لفظ ﴿ عَذَابًا ﴾ يفيد النوعية،أي أعددنا وهيأنا للكافرين نوعًا من العذاب ليس كغيره ، بل هو نوع من العذاب مهين جزاء لهم على الاختيال والفخر والبخل بالعلم أو المال أو بهما .

الآخر : ورد في سورة الحديد في سياق يقول : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد /٢٢ :٢٤] .

---

(١) روح المعاني ج ٥ ص ٢٩ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٢ ص ١٣٦ .

بعد أن بين تعالى في الآيتين الأولى والثانية ، أن ما أصاب الناس من القحط وقلة النبات والثمار أو الجوائح في الزرع وضيق العيش ، والأوصاب والأسقام ، موجود في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الأرض والأنفس والمصائب ، وأن ذلك على الله هين حتى لا يحزنوا حزنًا شديدًا على ما فاتهم من الدنيا لأنه لم يُقدّر لهم ، ولا يفرحوا فرحًا طاغيًا بما آتاهم من الدنيا من العافية والخصب ، بعد أن بين عز وجل ذلك بين أنه ﴿ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي لا يحب كل متكبر بما أوتي من الدنيا ، فخور به على الناس ، وأن هؤلاء المختالين الفخورين هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ .

ذكر العلماء أن ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ في موضع نصب على الذم ، أو في موضع نصب صفة لكل مختال فخور، أو بدل منه ، أو أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو أنه مبتدأ محذوف الخبر ، يقول الرازي : « في الآية قولان : الأول : أن هذا بدل من قوله : ﴿ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ كأنه قال : لا يحب المختال ولا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغي فإذا رزقوا مالاً وحظًا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا به بل يأمرون الناس بالبخل به ، وكل ذلك نتيجة فرحهم عند إصابته ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإن الله غني عنه القول الثاني: أن قوله : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، وهو في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ وبخلوا ببيان نعته، وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ وحذف الخبر كثير في القرآن كقوله:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ

ٱلْجِبَالُ ... ﴾ [الرعد /٣١][1]».

على رأي من قال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف يكون سر حذف المسند إليه هنا هو نفس السر الذي من أجله حذف في الموضع السابق ، وهو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أي الاحتراز من ذكر ما تدل عليه القرينة .

وعلى رأي من يجعل ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ مسندًا إليه والمسند محذوف يكون سر الحذف هو نفسه أيضًا السر الذي من أجله حذف في الموضع السابق ، وهو أن تذهب فيه النفس كل مذهب من الذم أو العذاب أو الاستغناء عنهم ، وعلى ذلك يكون تقدير المحذوف هنا هو مذمومون ، أو موعودون بالعذاب ، أو مستغنى عنهم كما يقول أبو حيان ، وعلى هذا الرأي يكون سر تعريف المسند إليه باسم الموصول هو الإيماء إلى وجه بناء الخبر بأنه من جنس الذم أو العذاب أو الاستغناء عنهم وعن مالهم ونفقاتهم .

ثم إنه تعالى قد أكد عن طريق القصر أن من يعرض عما أُمر به من الإنفاق فإنه سبحانه غني عن ماله ؛ فإنفاقه جل وعلا محمود عند خلقه لا يضره ذلك فقال :﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

ذكر أبو حيان أن الجمهور قرأ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ﴾ وقرأ نافع وابن عامر بإسقاط ﴿ هُوَ ﴾ وكذا في مصاحف المدينة والشام وكلتا القراءتين متواترة .

الجملة على القراءتين مفيدة للقصر ، لكن على قراءة من يثبت الضمير ﴿ هُوَ ﴾ يكون المغزى هو زيادة تأكيد معنى القصر ، وهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا مجازيًا ، كالقصر الوارد في قوله تعالى

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٩ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

: ﴿ هَآ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد/ ٣٨][1].

بخل المشركين بالإنفاق على الفقراء

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضع واحد في سورة يس ، وذلك في سياق يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس / ٤٥: ٤٧] .

بعد أن بين عز وجل في الآية الأولى والثانية من هذا السياق أن المشركين في غاية الجهل حيث إنهم أعرضوا عن الآيات التنزيلية ولم يتقوا ما بين أيدهم وما خلفهم من العذاب حتى يُرحموا ، وأنهم لا تأتيهم آية من آيات ربهم التنزيلية أو الكونية إلا أعرضوا عنها ، بعد أن بين تعالى ذلك ، بين في الآية الأخيرة « أنهم يبخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم ﴿ ٱتَّقُواْ ﴾ فلم يتقوا ، وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم : ﴿ أَنفِقُواْ ﴾ فلم ينفقوا[2]» .

وهكذا تجد أن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ قد عُطف على قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، لأن المتحدَث عنهم في الجملتين واحد وهم

---

(١) ينظر ص ١٣٩ من هذا البحث .

(٢) التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٨٤ .

المشركون ، فضلاً عن أن هناك مناسبة بين أمرهم بتقوى الله تعالى وأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله حيث إن كلاً منهما أمر بفضيلة ، فبينهما اتفاق في النصح والإرشاد لما فيه نفعهم ولكنهم أعرضوا ، لذا عُطفت الثانية على الأولى لما بينهما من التوسط بين الكمالين .

وقوله تعالى: ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فيه « إشارة إلى أمرين أحدهما : أن البخل به في غاية القبح فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير .وثانيهما:أنه لا ينبغي أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فإن الله رزقكم فإذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانيًا كما رزقكم أولاً[1]» .

ثم إن مقتضى السياق أن يكون التعبير : وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا ، ولكن عُدل عن التعبير بالضمير في (قالوا) إلى التعبير بالاسم الموصول ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ للتسجيل عليهم بالكفر ، وقد حُذف الفاعل في ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ لأنه لا يتعلق به أي غرض من الأغراض ، بل الغرض منصب على القول لا القائل ، أي : إذا قال لهم أي قائل .

وقد أجابوا عن هذا الطلب بقولهم على سبيل الاستهزاء والتهكم: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ « وسبب الآية أن الكفار لما أسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صلاتهم وكان الأمر بمكة أولاً فيه بعض الاتصال في وقت نزول آيات الموادعة فندب أولئك المؤمنون قرابتهم من الكفار إلى أن يصلوهم وينفقوا عليهم مما رزقهم الله ، فقالوا عند ذلك ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ قال الرماني: ونسوا ما يجب من التعاطف وتآلف المحقين . وقالت فرقة : بل سبب الآية أن قريشًا شحت بسبب أزمة على المساكين جميعًا، مؤمن

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٨٤ .

وغير مؤمن وندبهم النبي ﷺ إلى النفقة على المساكين فقالوا هذا القول[1]».

وقال الزمخشري : « كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء الله لأغنى فلانًا ، ولو شاء لأعزّه ، ولو شاء لكان كذا؛ فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله ومعناه : أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم ، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله ؛ لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كان بمكة زنادقة ، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله ، أيفقره الله ونطعمه نحن ؟ وقيل : كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادرًا على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك . نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ : أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله ، يعنون قوله:﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام/ ١٣٦] ، فحرموهم وقالوا : لو شاء الله لأطعمكم[2]».

وقولهم كما حكى القرآن الكريم عنهم : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ دون أن يقولوا: أننفق كما هو مقتضى السياق ، فيه بيان لكمال بخلهم وخستهم ، يقول النيسابوري : « وقوله : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ دون (أننفق) إظهار لغاية خستهم فإن الإطعام أدون من الإنفاق ومن بخل بالأدون فهو بأن يبخل بالأكثر أولى[3]» .

« وجواب لو نشاء قوله : ﴿ أَطْعَمَه ﴾ ، وورود الموجب بغير لام

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٣ ص ٢٠٤ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٩ .

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٥ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

فصيح، ومنه: ﴿أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُمْ﴾[الأعراف/ ١٠٠] ﴿لَوْنَشَاء جَعَلْنَاهُ﴾ [الواقعة / ٧٠] ؛ والأكثر مجيئه باللام[١]» .

وهذا القول من المشركين ينكره المؤمنون أشد الإنكار ، لذا قد رد المشركون إنكار المؤمنين بأقوى طرق التوكيد وهو أسلوب القصر حيث قالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد قصروهم على الضلال ونفوا عنهم الرشد ، قصر صفة على موصوف قصر قلب .

وقيل : ويجوز أن يكون هذا القول : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ من قِيل الله تعالى للمشركين ، أو حكاية لجواب المؤمنين ، وعلى هذا الوجه يكون المراد هو تأكيد خطأ المشركين وضلالهم في قيلهم للمؤمنين كما حكى القرآن الكريم عنهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ حيث إنهم قد أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ، وقد صيغت الجملة في أسلوب قصر لتأكيد دفع هذا الاعتقاد ، وقصر المشركين على الضلال قصر موصوف على صفة قصر قلب .

وقد رجح الطبري الرأي الأول حيث يقول : « وفي قوله : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ وجهان : أحدهما أن يكون من قيل الكفار للمؤمنين ، فيكون تأويل الكلام حينئذٍ : ما أنتم أيها القومُ في قيلكم لنا : أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم ، إلا في ذهاب عن الحقّ، وجور عن الرشد مُبِين لمن تأمله وتدبره ، أنه في ضلال وهذا أولى وجهيه بتأويله . والوجه الآخر: أن يكون ذلك من قيل الله للمشركين ، فيكون تأويله حينئذ : ما أنتم أيها الكافرون في قيلكم للمؤمنين : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ،

---

(١) البحر المحيط ج ٩ ص ٧٢ .

إلا في ضلال مبين ، عن أن قيلكم ذلك لهم ضلال[1]» .

وعلى رأي من قال يجوز أن تكون هذه الجملة من قيل الله تعالى للمشركين أو حكاية لما قاله المؤمنون للمشركين ، يكون في هذه الجملة استئناف بياني « جوابًا لما عسى أن يقال ما قال الله تعالى أو ما قال المؤمنون في جوابهم؟ [2]» ، وفي ذلك من الزجر والتوبيخ للمشركين ما فيه .

بخل المشركين عما يلتزمون

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في سورة النجم في سياق يقول : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلاَّ ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ ٱلأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ * أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ * أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَـٰنِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلأَوْفَىٰ ﴾ [النجم / ٣١ : ٤١] .

رو ى الطبري عن مجاهد أن قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴾ نزل في الوليد بن المغيرة ، يقول : « حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى وحدثني الحارث، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعًا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وأكْدَى ﴾ قال الوليد بن المغيرة : أعطى قليلاً ثم

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٣ ص ١٢ ، ١٣ .
(٢) روح المعاني ج ٢٣ ص ٣٠ .

أكدى .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى... ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُوَ يَرَى ﴾ قال : هذا رجل أسلم ، فلقيه بعض من يُعَيِّره فقال : أتركت دين الأشياخ وضَلَّلتهم ، وزعمت أنهم في النار ، كان ينبغي لك أن تنصرهم ، فكيف يفعل بآبائك ، فقال : إني خشيت عذاب الله ، فقال : أعطني شيئًا ، وأنا احمل كلّ عذاب كان عليك عنك ، فأعطاه شيئًا ، فقال زدني ، فتعاسر حتى أعطاه شيئًا ، وكتب له كتابًا ، وأشهد له ، فذلك قول الله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وأَعْطَى قَلِيلاً وأَكْدَى ﴾عاسره﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ نزلت فيه هذه الآية[1]» .

وذكر الزمخشري أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه ، يقول : « رُوى : أن عثمان رضي الله عنه كان يعطي ما له في الخير ، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقي لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنوبًا وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ، فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء . فنزلت[2]» .

وقد ذكر ابن عطية أن القول بأنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه قول باطل لأنه منزه عن مثله ، يقول : « وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ الآية ،قال مجاهد وابن زيد وغيرهما نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وذلك أنه سمع قراءة النبي ﷺ وجلس إليه ووعظه

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٧ ص ٧٠ .
(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤١٦ .

رسول الله ، فقرب من الإسلام ، وطمع النبي عليه السلام فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما هم به من الإسلام وضل ضلالاً بعيدًا ، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ، فنزلت الآية فيه .

وذكر الثعلبي عن قوم أنها نزلت في عثمان بن عفان في قصة جرت له مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح وذلك كله عندي باطل ، وعثمان رضي الله عنه منزه عن مثله ، وقال السدي : نزلت في العاصي بن وائل ، فقوله : ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴾ ، وعلى هذا القول في المال، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي المعنى: وأعطى من نفسه قليلاً من قربه من الإيمان ثم ﴿ أَكْدَىٰ ﴾ أي انقطع ما أعطى ، وهذا بين من اللفظ ، والآخر يحتاج إلى رواية[1]» .

« ... وقال محمد بن كعب القرظيّ : نزلت في أبي جهل بن هشام، قال : واللَّهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴾ . وقال الضحاك : هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه ، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه[2]» .

وذكر البقاعي أن هذه الآية « تصلح لكل من ارتد ظاهرًا أو نافق أو انهمك في المعاصي بعد إيمانه معرضًا عن الأعمال الصالحة[3]» .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٥ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ج ١٧ ص ١١٢ .
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٧ ص ٣٣٠ .

الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ يفيد التعجيب من هذا الشخص الذي أعرض عن الإسلام واتباع الحق والثبات عليه ، وقد ذكر الرازي أن هذه الجملة مرتبة على ما تقدم من بيان علم الله وقدرته ، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء ، يقول : « الفاء تقتضي كلامًا يترتب هذا عليه ، فماذا هو ؟ نقول : هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء وتقديره هو أن الله تعالى لما بين أن الجزاء لا بد من وقوعه على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم ، فلم يكن الإنسان مستغنيًا عن سماع كلام النبي ﷺ وأتباعه، فبعد هذا من تولى لا يكون توليه إلا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار[1]» .

وذكر البقاعي أن هذه الجملة مسببة عن الكلام السابق من سياق الآيات ، يقول : « ولما أمره سبحانه بالإعراض عمن تولى عن التشرف بذكر الملك الأعظم واللجاء إليه ، ونهى عن التزكية للجهل بالعواقب ، وكان قد ارتد ناس عن الإسلام ، كان سبب ارتدادهم إخباره ﷺ عن بعض ما رأى من الآيات الكبرى ليلة الإسراء ، وكان لما نزلت عليه ﷺ سجدة النجم وسجد فيها ﷺ سجد معه - كما في البخاري - المسلمون والمشركون والجن والإنس ، ولم يكن في ظن أحد من الخلق انقلابهم على أدبارهم بعد حتى ولا في ظن المرتدين ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أي أخبروني ﴿ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ أي عن ذكرنا بعد أن كان حريصًا عليه ، يظن هو وأهله أنه عريق في أهله بإيمانه وأعماله في أيام إيمانه[2]» .

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٩ ص ١١ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٧ ص ٣٢٩ .

وقد ذكر الرازي أن« ﴿ ٱلَّذِى ﴾ على ما قال بعض المفسرين عائد إلى معلوم ، وهو ذلك الرجل وهو الوليد ، والظاهر أنه عائد إلى مذكور ، فإن الله تعالى قال من قبل ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾[النجم/٢٩] . وهو المعلوم لأن الأمر بالإعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ أي الذي سبق ذكره ، فإن قيل : كان ينبغي أن يقول الذين تولوا ، لأن (مَن) في قوله : ﴿ عَن مَّن تَوَلَّىٰ ﴾ [النجم/٢٩] للعموم ؟ نقول : العود إلى اللفظ كثير شائع قال تعالى : ﴿ مَن جَاء بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ ﴾ [القصص: ٨٤] ولم يقل فلهم[١]» .

وذكر أبو حيان أن التولي هنا استعارة عن عدم الدخول في الإيمان يقول : « وإذا ذُكِرَ التولي غير مقيد في القرآن ، فأكثر استعماله أنه استعارة عن عدم الدخول في الإيمان[٢]» .

أقول : لعل هذا التعبير كناية عن صفة وهي عدم الإيمان ، وليس استعارة كما ذكر أبو حيان ؛ وذلك لأن من يُعرض عن سماع الذكر ويرجع إلى الكفر بعد الإيمان يستلزم عدم الإيمان .

ثم إنه تعالى قد عطف على هذه الجملة قوله : ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴾ ، لأن المتحدَث عنه في الجملتين واحد ، فضلاً عن اتفاقهما في الخبرية ، وعن أن « توليه عن الحق بالردة واعتقاده تحمل الغير لأوزاره وإعطاءه في مقابلته ما أعطى ، ثم رجوعه المتضمن لبخله وكذبه كله قبيح مذموم[٣]» ، لذا عُطفت الثانية على الأولى لما بينهما من التوسط بين الكمالين .

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٩ ص ١١ .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ص ٢٣ .

(٣) حاشية الشهاب ج ٩ ص ١٧ .

وقوله : ﴿ وَأَكْدَىٰ ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية ، وذلك للمبالغة في منع وإمساك هذا المشرك العطاء القليل الذي كان قد أعطاه لمن قال له: ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، يقول الزمخشري : « ﴿ وَأَكْدَىٰ ﴾ قطع عطيته وأمسك ، وأصله : إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كدية : وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر ، ونحوه : أجبل الحافر ، ثم استعير فقيل : أجبل الشاعر إذا أفحم[1]» .

المقصود من هذه الاستعارة وهي إكداء الحافر لهذا المشرك الذي أمسك عطاءه القليل لمن تكفل له بحمل ذنوبه وعذابه في الآخرة ، هو المبالغة في إمساك عطائه ، والمبالغة في إمساك العطاء القليل يستلزم وصفه بالبخل الشديد ، لذا فقد بُنيت هذه الاستعارة على كناية عن صفة ، وهي وصف الوليد بالبخل الشديد ، وهذا المعنى يتسق مع ما وصُف به من البخل الشديد في قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ [ق / ٢٤ :٢٥][2] .

يقول صاحب التحرير والتنوير : « وهذه مذمة ثانية بالبخل زيادة على بُعد الثبات على الكفر فحصل التعجيب من حال الوليد كله تحقيرًا لعقله وأفن رأيه[3]» .

ثم إنه تعالى قد زاد ذم هذا المشرك البخيل تقريعًا وتوبيخًا بقوله : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾ ، وقد قُدم المسند ﴿ عِندَهُ ﴾ على المسند إليه ﴿ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ لتقوية وتوكيد خطئه في اعتقاده الذي اعتقده من أن هناك من سيتكفل عنه بحمل ذنوبه وعذابه في الآخرة ، لأنه لا تحمل نفس

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤١٦ .

(٢) ينظر ص ٧٠ ، ٧١ من هذا البحث .

(٣) التحرير والتنوير ج ٢٧ ص ١٢٨ .

إثم نفس أخرى ، ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي : « أعلم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر فإن المتحمل عنه ينتفع بذلك ، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وهو له فيه بصيرة أم هو جاهل لم ينبأ أي يعلم ما في صحف موسى وهي التوراة ، وفي صحف إبراهيم ، وهي كتب نزلت عليه من السماء من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، أي لا تحمل حاملة حمل أخرى ، وإنما يؤخذ كل واحد بذنوب نفسه ، أي فلما كان جاهلاً بهذا وقع في عطاء ماله للذي قال له : إني أتحمل عنك درك الآخرة[1] » .

المشركون يُلْقَوْنَ في جهنم بمنع الخير

لقد ورد التعبير عن هذا لمعنى في موضع واحد في سورة (ق) ، وذلك في سياق يقول : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق/٢٠ : ٣٠] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن النفخة الآخرة للبعث يوم القيامة الذي وعد الله الكفار فيه بالعذاب ، هذا اليوم تجيء فيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ قال ابن عباس : « السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل ؛ رواه العوفي عن ابن عباس . وقال أبو هريرة : السائق

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٥ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

الملَك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم ؛ السائق قرينها من الشياطين سمي سائقًا لأنه يتبعها وإن لم يحثّها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملَكان . وعن عثمان بن عفان ﷺ أنه قال وهو على المنبر : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ سائق : مَلَك يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد : يشهد عليها بعملها [1]».

واختلف العلماء أيضًا في بيان المَعْنِي بالخطاب في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ يقول ابن عطية : « قال صالح بن كيسان والضحاك وابن عباس معنى قوله : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ أي يقال للكافر الغافل من ذوي النفس التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن وعاين الحقائق التي كان لا يصدق بها في الدنيا ويتغافل عن النظر فيها ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا ﴾ فلما كُشف الغطاء عنك الآن احتد بصرك أي بصيرتك ، وهذا كما تقول فلان حديد الذهن والفؤاد ونحوه ، وقال مجاهد : هو بصر العين إذا احتد التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة ، وقال زيد بن أسلم : قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق /١٩] . وقوله تعالى :﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾الآية مخاطبة لمحمد ﷺ والمعنى : أنه خُوطب بهذا في الدنيا أي لقد كنت يا محمد في غفلة من معرفة هذا القصص والغيب حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وهذا التأويل يضعف من وجوه :

أحدها : أن الغفلة إنما تُنسب أبدًا إلى مُقَصِّرٍ ومحمد ﷺ لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٧ ص ١٤ .

وثان : أن قوله بعد هذا :﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يقتضي أن الضمير إنما يعود على أقرب مذكور وهو الذي يقال له : ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ وإن جعلناه عائدًا على ذي النفس في الآية المتقدمة جاء هذا الاعتراض لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن فتأمله .

وثالث : أن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط، وهو أحرى بالآية وأولى بالرصف ، والوجه عندي ما قاله الحسن وسالم بن عبد الله إنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر[1]».

ثم يكشف عز وجل عن قيل المَلَك الموكل حين يُحضره ويُحضر عمله المُعَدَّ المحفوظ ، وعن أمره تعالى بإلقاء هذا الإنسان في العذاب الشديد في جهنم ، بمبالغته في الكفر والإعراض عن الحق ، والبخل بحقوق الله والآدميين من البر والصلة والصدقة ، والإشراك بالله .

هذا ، وقد ذكر العلماء أن قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ خطاب للمَلَكين السابقين المذكورين في قوله عز وجل : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ، أو أنه للملكين من ملائكة العذاب ، أو أنه خطاب للقرين وهو بلفظ واحد مخرج خطاب الاثنين ، يقول الزمخشري : « ﴿ أَلْقِيَا ﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين : السائق والشهيد : ويجوز أن يكون خطابًا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد : أن تثنية الفاعل نُزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما ، كأنه قيل : ألق ألق : للتأكيد . والثاني : أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليليّ وصاحبيّ ، وقفا وأسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرسي ، اضربا عنقه . وقرأ الحسن : « ألقين» بالنون الخفيفة . ويجوز أن تكون الألف في ﴿ أَلْقِيَا ﴾ بدلاً من

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٥ ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

النون: إجراء للوصل مجرى الوقف[1]» .

وقد رجح أبو حيان بعد أن أشار إلى هذه الآراء ـ الرأي الأول لأنه هو الملائم لظاهر اللفظ ، وما عداه مرغوب عنه يقول : « وهذه أقوال مرغوب عنها ، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد . وقرأ الحسن : ألقين بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف[2]» .

بناء صيغة ﴿ كَفَّارٍ ﴾ ، ﴿ عَنِيدٍ ﴾، ﴿ مَّنَّاعٍ ﴾ على فَعَّال وفَعِيل ، فيه دلالة على مبالغة هذا الإنسان في كفران نعم الله عز وجل وجحودها ، وعدم أداء حق الله وحق العباد فيها ، أو للمبالغة في كفره وإنكاره وحدانية الله تعالى ، وإعراضه عن الحق ومُعاداة أهله ، فضلاً عن منع غيره من الدخول في الإسلام ، فقد قيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، يقول الزمخشري :« قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يمنع بني أخيه من الإسلام ، وكان يقول : من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت[3]» .

وهكذا تجد أن المقصود من قوله سبحانه : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ هو وصف هذا الإنسان بشدة البخل ، لكنه لم يُعَبِّرْ عن هذا المعنى تعبيرًا صريحًا ، بل سُلك في إثباته الطريق الأبلغ ، وهو الكناية عن صفة ، لأنه إذا كان لا يؤدي حق الله تعالى ولا حق العباد ، أو يمنع فضل مائه وكلئه عن المسلمين ، أو يمنع الناس من الخير والإحسان ، أو أولاد أخيه من الدخول في الإسلام ، فهذا يستلزم أنه بخيل غاية البخل بجنس الخير ، وهذا أبلغ من أن يوصف بذلك وصفًا صريحًا ؛ لما فيه من الدليل والبرهان

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٧٧ .

(٢) البحر المحيط ج ٩ ص ٥٣٧ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٣٧٧ .

ثم إن هذه الصفات التي وُصف بها هذا الإنسان ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... ﴾ قد جاءت متتابعة غير معطوفة للدلالة على أنها مجتمعة فيه وكأنها صفة واحدة .

وجاء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ معطوفا بالواو على قوله : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ للجمع بين معنييهما في الحصول ، أما قوله عز وجل : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ فقد جاء مفصولاً لاستئنافه استئنافًا بيانيًا ، يقول الزمخشري بعد أن ذكر قوله جل وعلا : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ : « فإن قلت: لم أُخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون. فإن قلت : فأين التقاول هٰهنا ؟ قلت : لما قال قرينه : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ وتبعه قوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ وتلاه : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ ﴾ علم أنّ ثم مقاولة من الكافر ، لكنها طُرحت لما يدل عليها ، كأنه قال : رب هو أطغاني ، فقال قرينه : ربنا ما أطغيته . وأمّا الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين : وقول قرينه ما قال له : ﴿ مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ ما جعلته طاغيًا ، وما أوقعته في الطغيان ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَٰنٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾[1] » [إبراهيم/ ٢٢] .

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

هذا ، ويلاحظ أن التعبير عن المعاني الواردة في هذا السياق قد جاءت بالفعل الماضي ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ ، ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ ، ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ ، على الرغم من أن هذه الأحداث ستقع يوم القيامة ، وذلك للإشعار بتحقق الوقوع ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل باعتبار حدثه وزمانه .

المشركون يُوسَمون على أنوفهم بمنع الخير

لقد ورد التعبير عن وَسم المشركين على أنوفهم بمنعهم الخير في موضع واحد في سورة القلم ، وذلك في سياق يقول : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ [القلم /٨:١٦] .

يقول الرازي مبينًا علاقة هذه الآيات الكريمة بما قبلها : « اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه ، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني رؤساء أهل مكة ، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم ، وهذا من الله إلهاب وتهييج التشدد في مخالفتهم[1]» .

---

(١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٨٣ .

الخطاب في هذه الآيات الكريمة وإن كان موجهًا له ﷺ فالمراد أمته ليكون ذلك أبلغ في سماعهم كمل يقول البقاعي .

وقد علل عز وجل هذا النهي عن إطاعتهم بقوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ، « أي تُلاين فتوافق على بعض ما يريدون فتهادنهم على ترك نهيهم عن الشرك وترك التعرض لسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم[1] » ، ثم إنه تعالى قد أعاد نهى رسول الله ﷺ عن أن يطيع ﴿ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ..... ﴾ إلخ الآيات المذكورة « للاهتمام بهذا الأدب فلم يُكتفَ بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين ، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال : ولا كلَّ خلاف ، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى ، وليفيد تسليط الوعيد الخاص وهو في مضمون قوله : ﴿ سَنَسِمُهُ على الخرطوم﴾ على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذبين[2] » .

وقد وصفت هذه الآيات الكريمة هؤلاء المكذبين بعشر صفات مذمومة :

الأولى والثانية : ﴿ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ الحلَّاف : هو الكثير الحلف بالباطل ، وهو « الأخنس بن شَرِيق ؛ في قول الشعبيّ والسُّديّ وابن إسحاق . وقيل : الأسود بن عبد يغوث ، أو عبد الرحمن بن الأسود ، قاله مجاهد . وقيل : الوليد بن المغيرة ، عرض على النبيّ ﷺ مالاً وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه قاله مقاتل . وقال ابن عباس : هو أبو جهل بن هشام[3] » .

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٨ ص ١٠٠ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٧٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢٣١ .

والمهين : هو الوضيع الضعيف القلب الفاجر الكذاب المكثار من الشر .

الثالثة والرابعة : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ الهمَّاز : هو العيَّاب الطَّعان الذي يطعن في أعراض الناس ويأكل لحومهم .

والمشَّاء بنميم : هو الذي يمشي بالنميمة بين الناس ينقل حديث بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم ، يقول الطبري : « حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن الكلبي، في قوله : مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ قال : هو الأخنس بن شريق ، وأصله من ثقيف ، وعداده في بني زُهْرة[1]» .

الخامسة والسادسة والسابعة : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ المنَّاع للخير : هو البخيل بالمال الضنين به عن الحقوق ، « وقال ابن عباس : يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته . وقال الحسن : يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدًا[2]» ، ويقول ابن عطية : « قال كثير من المفسرين : الخير هنا المال ، فوصفه بالشح ، وقال آخرون : بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة،ومن يمنع إيمانه وطاعته لله تعالى فقد منع الخير[3]».

المعتدي : هو الظالم المتجاوز للحد .

الأثيم : هو المبالغ في الإثم .

الثامنة والتاسعة : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ، لقد ذكر العلماء في تأويل العُتُل تسعة أوجه جمعها الماوردي حيث يقول : « وفيه تسعة أوجه: أحدها : أن العُتُلّ الفاحش ، وهو مأثور عن النبي ﷺ .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٩ ص ٢٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢٣٢ .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٦ ص ٧٨ .

الثاني : أنه القوي في كفره ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه الوفير الجسم ، قاله الحسن وأبو رزين .

الرابع : أنه الجافي الشديد الخصومة بالباطل ، قاله الكلبي .

الخامس : أنه الشديد الأسر ، قاله مجاهد .

السادس : أنه الباغي ، قاله ابن عباس .

السابع : أنه الذي يعتِل الناس ، أي يجرهم إلى الحبس أو العذاب مأخوذ من العتل وهو الجر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتِلوه ﴾ [الحاقة / ٣٠] .

الثامن: هو الفاحش اللئيم ، قاله معمر ، قال الشاعر :

يعتل من الرجال زنيم غير ذي نجدةٍ وغير كريم

التاسع : ما رواه شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غَنْم ، ورواه ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : " لا يدخل الجنةَ جواظٌ ولا جعظري ولا العتلّ الزنيم[1] " فقال رجل : ما الجواظ وما الجعظري وما العتل الزنيم ؟ فقال رسول الله ﷺ " الجواظ الذي جمع ومنع ، والجعظري الغليظ ، والعتل الزنيم الشديد الخلق الرحيب الجوف ، المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام ، الظلوم للناس"[2]» .

---

(١) رواه الهيثمي . مجمع الزوائد : لعلي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، أبو الحسن نور الدين المصري القاهري . نشر دار الفكر . حديث رقم ٨١٦٨١ . وقال بعد أن رواه : رواه أحمد وإسناده حسن إلا أن ابن غَنم لم يسمع من النبي ﷺ . ورواه أيضًا السيوطي : جامع الأحاديث والمراسيل: لجلال الدين السيوطي ، نشر دار الفكر ١٩٩٤ م . حديث رقم ٢٦٨٣٦ ــ ولفظه قَالَ النَّبِيُّ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْجَوَّاظُ الْجَعْظَرِيُّ ، وَالْعُتُلُّ الزَّنِيمُ : هُوَ الشَّدِيدُ الْخَلْقِ الْمُصَحَّحُ الأَكُولُ الشَّرُوبُ ، الْوَاجِدُ لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، الظَّلُومُ لِلنَّاسِ ، الرَّحِيبُ الْجَوْفِ » .

(٢) النكت والعيون تفسير الماوردي . تصنيف أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (٣٦٤ ــ ٤٥٠) راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبدالرحيم . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . ج ٦ ص ٦٤ ، ٦٥ .

الزنيم : يقول ابن عطية : « والزنيم : في كلام العرب ، الملصق في القوم وليس منهم، وقد فسر به ابن عباس هذه الآية وقال مرة الهمداني : إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة ، يعني الذي نزلت فيه هذه الآيـــة ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت : [الطويل]

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

ومنه قول حسان بن ثابت أيضًا : [الطويل]

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

فقال كثير من المفسرين : هذا هو المراد في الآية. وذلك أن الأخنس بـــن شريق كان من ثقيف ، حليفًا لقريش . وقال ابن عباس : أراد بـــ " الزنيم " أن له زنمة في عنقه كزنمة الشاة ، وهي الهنة التي تعلق في عنقها ، وما كنا نعرف المشار إليه ، حتى نزلت فعرفناه بزنمته.

قال أبو عبيدة : يقال للتيس زنيم إذ له زنمتـــان ، ومنـــه قـــول الأعرابي في صفة شاته : كأن زنمتيها نتوا قليسية . وروي أن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة كان له زنمة . وروى ابن عباس أنه قـــال : لمـــا نزلت هذه الصفة، لم يعرف صاحبها حتى نزلت ﴿ زَنِيمٍ ﴾ فعرف بزنمته . وقال بعض المفسرين : الزنيم : المريب القبيح الأفعال[1]» .

العاشرة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ « قال ابن عبـــاس : معنى ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ سَنخْطِمه بالسيف . قال : وقد خُطم الذي نزلت فيه يوم بـــدر بالسيف ؛ فلم يزل مخطومًا إلى أن مات . وقال قتادة : سنسمه يوم القيامة على أنفه سِمَةً يُعرف بها ؛ يقال : وسَمْتَه وسْمًا وسِمَةً إذا أثّرت فيه بِسِمَةٍ وكَيّ . وقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ . فهذه علامـــة ظاهرة . وقال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ وهذه علامـــة

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٦ ص ٧٨ ، ٧٩ .

أخرى ظاهرة . فأفادت هذه الآية علامة ثالثةً وهي الوسم على الأنف بالنار ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قاله الكلبي وغيره . وقال أبو العالية ومجاهد : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ أي على أنفه ، ونسوّد وجهه في الآخرة فَيُعْرف بسواد وجهه ... [1]» .

وهكذا تجد أن هذه الصفات قد جاءت متتابعة غير معطوفة كالموضع السابق ، وذلك للكشف عن أنها قد اجتمعت في المتحَدَّث عنهم وكأنها صفة واحدة ، وهذا لايعني « أن النهي منصب إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات بحيث لو أطاع بعض أصحاب هذه الصفات لم يكن مخالفًا للنهي إذ لا يخطر ذلك بالبال ولا يجري على أساليب الاستعمال، بل المراد النهي عن طاعة كل موصوف بخصلة من هذه الخصال بَلْهَ من اجتمع له عِدَّةٌ منها[2]» ؛ وذلك لأن المقصود هنا عموم النهي ، لا النهي عن العموم ، ثم إن الترتيب في هذه الصفات « إنما هو في قول الواصف ، لا في حصول تلك الصفات في الموصوف وإلا فكونه عتلاً ، هو قبل كونه صاحب خير يمنعه[3]» ، وهذه الأوصاف كما يقول البقاعي : « متفرخة من الكذب وخبث السجية، فهي كالتفصيل ، فكثرة الحلف دالة على فساد القوة العلمية فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق، فصار صاحبها لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فلذلك يحلف صادقًا وكاذبًا كيفما اتفق[4]» .

إن من بين الصفات التي وُصف بها هذا الحَّلاف المَهين ، وقد نُهيت الأمة عن إطاعته من أجلها هي أو غيرها ، وصفه بأنه مبالغ في

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٧٠ ، ٧١ .
(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٦ ص ٧٨ .
(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٨ ص ١٠١ .

منع الخير في قوله جل وعلا : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ ، والمقصود من هذا الوصف هو وصفه بالبخل ، سواء أكان بخلاً بالمال والضنَّ به عن الحقوق ، أم بخلاً بجنس الخير من المال والأفعال الصالحة ، ولكن الآيات الكريمة لم تصفه بذلك وصفًا صريحًا ، بل عبَّرت عن ذلك بالطريق الأبلغ وهو الكناية عن صفة ، وطريق إثبات هذا المعنى هنا ، هو نفس طريق إثبات المعنى في الموضع السابق الوارد في قوله تعالى :﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ [ق / ٢٤ : ٢٥] ، لكن السياق في سورة (ق) يتحدث عن سبب إلقاء هذا الإنسان في العذاب الشديد في جهنم ، وهو الكفر والعناد أي الإعراض عن الحق والبخل والإشراك بالله ، و يتحدث السياق هنا عن سبب إهانة هذا الحَّلاف المهين بالوَسم على أنفه لكذبه وحقارته وإفساده بين الناس ومنعه للخير ... إلخ ، وقد استعير الوسم على الخرطوم للوسم على الأنف للمبالغة في إذلاله وإهانته وجعله كالبهيمة التي لا تملك دفع الوسم عن نفسها ، يقول الرازي : « الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين ، وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شيْن ، فكيف على أكرم موضع من الوجه[1]» .

وقد اختلف العلماء في وقت حدوث ذلك ، فمنهم من ذهب إلى أن ذلك يقع في الدنيا ، ومنهم من ذكر أن ذلك يقع في الآخرة في جهنم ، يقول ابن عطية : « ولم يقع التوعد في هذه الآية ، بأن يوسم هذا الإنسان على أنفه بسمة حقيقة ، بل هذه عبارة عن فعل يشبه الوسم على

---

(١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٨٦ .

الأنف. واختلف الناس في ذلك الفعل، فقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف أي يضرب في وجهه ، وعلى أنفه فيجيء ذلك الوسم على الأنف ، وحل ذلك به يوم بدر. وقال محمد بن يزيد المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنوفهم . وقال آخرون ذلك في يوم القيامة ، أي يوسم على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره . وقال قتادة وغيره معناه : سنفعل به في الدنيا من الذم له والمقت والإشهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً ، وهذا المعنى كما تقول : سأطوقك طوق الحمامة ، أي أثبت لك الأمر بيناً فيك ، ونحو هذا أراد جرير بقوله : [الكامل]

لما وضعت على الفرزدق ميسمي

وفي الوسم على الأنف تشويه ، فجاءت استعارته في المذمات بليغة جدًا. وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأحدوثة رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم[1]» .

المشركون يَصْلَوْنَ الجحيمَ بالبخل

لقد ورد التعبير عن عدم الحض على طعام المسكين في ثلاثة مواضع :

الأول : في سورة الحاقة في سياق يقول : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة / ٢٥ : ٣٤] .

بعد أن بينت الآيات السابقة حال المؤمنين الذين يؤتون كتابهم

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٦ ص ٨٠ ، ٨١ .

بيمينهم بأنهم في جنة عالية بما قدموا من الأعمال الصالحة في الدنيا فإن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن المشركين الذين يؤتون كتابهم بشمالهم ، بأنهم يتمنون أن لم يؤتوا هذا الكتاب لما فيه من سوء أعمالهم ، وأنهم يتمنون أن الموتة التي ماتوها أو الحالة التي هم فيها لمَّا أُوتوا هذا الكتاب هي القاطعة لأمرهم ولم يُبعثوا بعدها ، وأن مالهم وتسلطهم على الناس لا يغني عنهم شيئًا من العذاب ، ثم تتحدث الآيات الكريمة عن قول الله عز وجل لخزنة جهنم بشد هؤلاء المشركين بالأغلال وتصليتهم الجحيم ، وإذاقتهم أشد العذاب بأن يُسلكوهم في سلاسل طولها سبعون ذراعًا ، وقد بين تعالى أنهم يذوقون هذا العذاب لكفرهم وعدم إيمانهم بالله ، ولبخلهم بعدم إطعام المسكين أو الحث عليه ، وأنهم لا قريب لهم يدفع عنهم هذا العذاب ، وأن طعامهم في الجحيم هو غسالة أهل النار وصديدهم .

يقول الزمخشري : « الضمير في ﴿ يٰلَيْتَهَا ﴾ للموتة : يقول : يا ليت الموتة التي متها ﴿ كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ أي القاطعة لأمري ، فلم أبعث بعدها ؛ ولم ألق ما ألقى . أو للحالة ، أي : ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليّ ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمرّ مما ذاقه من مرارة الموت وشدته ؛ فتمناه عندها[1]» .

و (ما) الأولى في قوله تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ يصح أن تكون نافية ، أي ما أغنى عني ما كان لي من اليسار والغنى شيئًا ، ويصح أن تكون استفهامية لإفادة الإنكار ، أي : أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار والغنى والتبع ، أما (ما) الثانية فهي موصولة وقعت فاعلاً للفعل ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ .

« وقوله : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴾ في المراد بلسطانيه وجهان :

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٥٩١ .

أحدهما : قال ابن عباس : ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها على محمد في الدنيا ، وقال مقاتل : ضلت عني حجتي يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك ، والثاني : ذهب ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيرًا ذليلاً ، وقيل معناه : إنني إنما كنت أنازع المحقين بسبب الملك والسلطان ، فالآن ذهب ذلك الملك وبقي الوبال[1]» .

ثم إنه قد فُرِّع على حكاية هذا القول الذي يقوله المشرك حين يأخذ كتابه بشماله ، حكاية ما يُقال لخزنة جهنم : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ ، لذا فصلت الثانية عن الأولى لما بينهما من كمال الانقطاع ، لأنها مفرعة عليها .

يقول الشيخ سليمان نوار : « وقد ترى جملة مقرونة بأخرى لأن الثانية ثمرة من ثمرات الأولى ، وإن شئت فقل هي مفرّعة على ما قبلها ، وأنت هنا مخير بين أن تدخل على الثانية الفاء ــ فاء التفريع ــ وأن تكتفي بمجرد وضعها بعدها بدون الفاء ، فإذا جردتها من الفاء وجدت نوعًا جديدًا من كمال الانقطاع يعتمد فيه المتكلم على ذكاء السامع وفهمه أن الثانية مترتبة على الأولى بدون الفاء كما يكتفى في بعض مواضع شبه كمال الاتصال ــ وهو ما كان الثانية فيه علة للأولى ــ بمجرد القِرَانِ بدون احتياج إلى لام التعليل اتكالاً على ذلك الذكاء ...[2]» .

تقديم المفعول وهو ﴿ ٱلْجَحِيمَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ يفيد الحصر ، أي قصر تصلية المشرك على الجحيم قصر صفة على موصوف قصرًا مجازيًا ، المغزى منه المبالغة في أن الجحيم لا

---

(١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١١٤ .

(٢) ينظر : مذكرات في الفصل والوصل والقصر ، للشيخ سليمان نوار ص٦١ ، ٦٢ . طبع مطبعة العلوم . الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤ م .

تتجاوز المشركين إلى غيرهم .

وتقديم الجار والمجرور ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾على عامله﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ في قوله جل وعلا :﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ يفيد الحصر أيضًا ، أي قصر سَلْكِ هذا المشرك السلسلة التي وُصفت بأن طولها سبعون ذراعًا ، قصر صفة على موصوف قصرًا مجازيًا أيضًا .

يقول الزمخشري : « ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطانًا يتعظم على الناس. يقال : صلى النار وصلاه النار . سلكه في السلسلة : أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه ألمناؤها ؛ وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة؛ وجعلها سبعين ذراعًا إرادة الوصف بالطول. كما قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة ، يريد: مرات كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك: مثله في تقديم الجحيم على التصلية. أي : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم[1]» .

هذا وقد اعترض أبو حيان على ما ذكره الزمخشري من أن تقديم المفعول في قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ يفيد الحصر ، يقول بعد أن ذكر هذا النص للزمخشري : « وإنما قدره لا تصلوه إلا الجحيم ، لأنه يزعم أن تقديم المفعول يدل على الحصر. وقد تكلمنا معه في ذلك عند قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وليس ما قاله مذهبًا لسيبويه ولا لحذاق النحاة[2]».

أقول : إن ما ذهب إليه الزخشري هو الرأي ، وإذا كان هذا ليس مذهبًا لحذاق النحاة ، فإنه مذهب لحذاق البلاغيين كالزمخشري ، وذلك لأن

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٥٩٢ .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ ص ٢٦١ .

المقصود في هذا المقام هو تأكيد بيان أن الذين يؤتون كتابهم بشمالهم هم الذين يُعذبون بهذا النوع من العذاب ، وأن ذلك مقصور عليهم ، فكان القصر بتقديم المفعول والمعمول هو الأسلوب الذي يقتضيه المقام للإبانة عن هذا المعنى لأنه توكيد على توكيد كما يقول البلاغيون .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ وقوله :﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ قد خرجت عن أصل معناها وهو الدلالة على التراخي الزمني ، للدلالة على التراخي الرتبي أي : « الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك في السلسلة ، لا على تراخي المدة[1]» .

وقد ذكر أبو حيان بعد أن ذكر هذا الرأي للزمخشري قوله : « وأما ثم فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية ، وأنه أولاً يؤخذ فيُغل . ولما لم يعذب بالعجلة ، صارت له استراحة ، ثم جاء تصلية الجحيم ، فكان ذلك أبلغ في عذابه ، إذ جاءه ذلك وقد سكنت نفسه قليلاً ، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولاً معذبًا في النار ، لكنه كان له انتقال من مكان إلى مكان ، فيجد بذلك بعض تنفس. فلما سلك في السلسلة كان ذلك أشد ما عليه من العذاب، حيث صار لا حراك له ولا انتقال ، وأنه يضيق عليه غاية ، فهذا يصح فيه أن تكون ثم على موضوعها من المهلة الزمانية[2]» .

وقد ذهب البيضاوي إلى ما ذهب إليه الزمخشري من أن (ثم) تفيد التراخي الرتبي ،حيث يقول :« وثم لتفاوت ما بينها في الشدة[3]» ، وقد

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٥٩٢ .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ ص ٢٦٢.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٩ ص ٢٦٠ .

بين الشهاب الخفاجي في تعليقه على هذه الجملة للبيضاوي السر في أنها تفيد التراخي الرتبي لا الزمني حيث يقول : « ولم يجعلها للمهلة إذ مقام التهديد لا يناسب ذكر تفرق العذاب[1]».

ثم إن شدَّ هذا المشرك بالأغلال ، وتصليته الجحيم ، وسلكه في هذه السلسلة ، يثير سؤالاً تقديريًا خاصًا عن علة فعل ذلك به ، أي : أيُفعل به ذلك لأنه كان لا يؤمن بالله ولا يحض على إطعام المسكين ؟ فكان الجواب: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ، لذا فصلت الثانية عن الأولى لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، « ووصفُه تعالَى بالعِظَمِ للإيذانِ بأنَّه المُستحقُّ للعظمةِ فحسبُ ، فمَنْ نسبَها إلى نفسِهِ استحقَّ أعظمَ العُقوباتِ[2]» .

وقد أُكدت هذه الجملة بـ (إن) ، لأنه لما أُمر خزنة جهنم بأخذ هذا المشرك وغله وتصليته الجحيم ، وسلكه في سلسلة طولها سبعون ذراعًا ، صاروا كالسائل المتردد المستشرف لمعرفة الحكم الذي من أجله قد أُمروا بذلك ، فجاء الخبر مؤكَّدًا بـ (إن) في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ لإزالة هذا التردد التنزيلي .

وقد عُطفت جملة ﴿ وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ على جملة ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ لاتفاقهما في الخبرية ، فضلاً عن أن الكفر أقبح العقائد ، والبخل أشنع الرذائل ؛ فبينها تماثل ، لذا عُطفت الثانية على الأولى لما بينهما من التوسط بين الكمالين .

يقول ابن كثير : « وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ

---

(١) حاشية الشهاب ج ٩ ص ٢٦٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . ج ٦ ص ٢٩٧ .

* ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبي ﷺ وهو يقول : " الصلاة وما ملكت أيمانكم"[1]» .

والمسكين هو : الضعيف الكسب المحتاج السائل المتذلل للناس بمسألتهم[2].

وعلى ذلك يكون المقصود من وصف هذا المشرك بقوله تعالى : ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ هو وصفه بالبخل الشديد ، ولكن الآية الكريمة لم تسلك في الإبانة عن هذا المعنى طريق التصريح ، بل عدلت إلى الطريق الأبلغ وهو الكناية والتلويح لما في ذلك من إثبات المعنى بالدليل والبرهان ، يقول الزمخشري : « وفي قوله : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين ، أحدهما : عطفه على الكفر ، وجعله قرينة له . والثاني : ذكر الحض دون الفعل ، ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بتارك الفعل ، وما أحسن قول القائل :

إِذَا نَزَلَ الأَضْيَافُ كَانَ عَذَوَّرا عَلَى الْحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٨ ص ٢١٦ . وقد روى أبو يعلى هذا الحديث في مسنده حيث قال : « حدثنا أبو خيثمة حدثنا يزيد ابن هارون حدثنا همام ابن يحيى عن قتادة عن أبي الخليل عن سفينة عن أم سلمة :« أن النبي ﷺ قال : وهو في الموت جعل يقول : " الصلاة وما ملكت أيمانكم . فجعل يقولها وما يفيض بها لسانه " » (مسند أبي يَعلَى . لأبي يَعلَى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي . طبعة دار الكتب العلمية . حديث رقم ٦٩٨١) .

(٢) ينظرجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٥٨ وما بعدها .

يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم . وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر؟ وقيل : هو منع الكفار . وقولهم: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس: ٤٧] والمعنى على بذل طعام المسكين[1]» .

ويقول صاحب التحرير والتنوير : « وقد جُعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشحّ عنهم بماله ، كما جُعل الحرص على إطعام الضيف كناية عن الكرم في قول زينب بنت الطَّثَرِيَّةِ ترثي أخاها يزيدَ :

إذا نَزل الأضياف كان عَذَوَّراً على الحَي حتى تَستقل مَراجِلُه

تريد أنه يحضر الحي ويستعجلهم على نصب القدور للأضياف حتى توضع قدور الحي على الأثافي ويَشرعوا في الطبخ ، والعَذوَّر بعين مهملة وذال معجمة كعملَّس: الشكِس الخُلُق .

إلاّ أن كناية ما في الآية عن البخل أقوى من كناية ما في البيت عن الكرم لأن الملازمة في الآية حاصلة بطريق الأولوية بخلاف البيت .

وإذ قد جُعل عدم حضه على طعام المسكين جزء علة لشدة عذابه ، علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم في الأموال وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها[2]» .

الثاني : ورد في سورة الفجر في سياق يقول : ﴿ فَأَمَّا ٱلإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَانَنِ * كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ١٣٩ .

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبّاً جَمًّا * كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ ٱلأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ [الفجر / ١٥ : ٢٦] .

بعد أن بين عز وجل أنه لم يبتل الغني بالغنى لكرامته عليه ، وأنه لم يبتل الفقير بفقره لهوانه عليه ، بل إن ذلك من محض القضاء والقدر ، فمن أكرمه أكرمه بطاعته ، ومن أهانه أهانه بمعصيته ، وكل ذلك من تقديره وقضائه ، وأنه ينبغي للعبد أن يحمدُ الله عز وجل على الغنى والفقر، بعد أن بين تعالى ذلك ، بين أن هذا من أجل أنهم لا يكرمون اليتيم ، وأنهم لا يحض بعضهم بعضًا على إطعام المسكين ، وأنهم يأكلون ميراث اليتيم أكلاً شديدًا ، فقد كانوا لا يورثون النساء ولا الأطفال .

يقول القرطبي : « وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث : وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته. فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه ، المؤدّي إلى حظ الآخرة ، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره[1]» .

﴿ كَلاَّ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ردع لهؤلاء الكفار الذين حكى القرآن الكريم عنهم قولهم : ﴿ فَأَمَّا ٱلإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّىۤ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّىۤ أَهَانَنِ ﴾ فهي تفيد « الإضراب من القبيح إلى الأقبح للترقي في ذمهم[2]» .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٥١ .

(٢) حاشية الشهاب ج ٩ ص ٤٨٩ .

وقوله تعالى : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ كناية عن شدة بخلهم وشحهم ، لأنهم إذا كانوا يأكلون مال اليتيم ولا يحسنون إليه ولا يدفعون إليه ميراثه ، وإذا كانوا لا يطعمون المسكين ولا يحثون على إطعامه ، فهذا يستلزم شدة بخلهم وشحهم .

يقول الزمخشري :« ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان عن قوله. ثم قال : بل هناك شرّ من القول . وهو: أنّ الله يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة ، وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ، ويحبونه فيشحون به[1]».

هذا : « وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمر: يكرمون ولا يحضون ، ويأكلون ويحبون بياء الغيبة فيها ؛ وباقي السبعة، بتاء الخطاب ، وأبو جعفر وشيبة والكوفيون وابن مقسم : تحاضون بفتح التاء والألف أصله تتحاضون ، وهي قراءة الأعمش ، أي يحض بعضكم بعضًا ؛ وعبدأ الله أو علقمة وزيد بن عليّ وعبد الله بن المبارك والشيرزي عن الكسائي : كذلك إلا أنهم ضموا التاء، أي تحاضون أنفسكم ، أي بعضكم بعضًا ، وتفاعل وفاعل يأتي بمعنى فعل أيضًا[2]» .

أقول : على قراءة أبي رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمر: يكرمون ولا يحضون ، ويأكلون ويحبون بياء الغيبة ، يكون الكلام قد جرى على مقتضى ظاهر السياق ، أما على قراءة باقي السبعة بتاء الخطاب (تُكْرِمُونَ ، تَحَاضُّونَ ، تَأْكُلُونَ ، تُحِبُّونَ) فيكون في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب « للإيذانِ باقتضاءِ ملاحظةِ جنايته السابقةِ لمشافهتِه بالتوبيخِ تشديدًا للتقريعِ وتأكيدًا للتشنيعِ والجمعُ باعتبارِ معْنى

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٧٣٨ .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ ص ٤٧٤.

الإنسانِ إذِ المرادُ هو الجنسُ أي بَلْ لكم أحوالٌ أشدُّ شرًا مما ذُكِرَ وأدلُّ عَلى تهالُككم على المالِ حيثُ يُكْرمكم الله تعالَى بكثرةِ المالِ فلاَ تؤدونَ ما يلزمكُم فيهِ من إكرامِ اليتيمِ بالمبرةِ به[1]» .

الثالث : جاء في سورة الماعون في سياق يقول : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون /١ : ٧] .

ذكر القرطبي أنه « اختلِف فيمن نزل هذا فيه ؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في العاصي بن وائل السَّهْمِيّ ؛ وقاله الكلبيّ ومقاتل . وروى الضحاك عنه قال : نزلت في رجل من المنافقين . وقال السُّدّيّ : نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل في أبي جهل . الضحاك: في عمرو بن عائذ . قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُورًا ، فطلب منه يتيم شيئًا ، فقَرعه بعصاه ؛ فأنزل الله هذه السورة[2]» .

وقال أبو حيان : « هذه السورة مكية في قول الجمهور، مدنية في قول ابن عباس وقتادة . قال هبة الله المفسر الضرير: نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل ، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق . ولما عدد تعالى نعمه على قريش ، وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، اتبع امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه . ونزلت في أبي جهل ، أو الوليد بن المغيرة ، أو العاصي بن وائل ، أو عمر بن عائذ ، أو رجلين من المنافقين ، أو أبي سفيان بن حرب ، كان ينحر في كل أسبوع جزورًا،

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٦ ص ٤٢٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٢١٠ .

فأتاه يتيم فسأله شيئًا فقرعه بعصا ، أقوال آخرها لابن جريج[1]» .

على الرأي القائل بأنها نزلت في العاصي بن وائل الثقفي ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أبي جهل ، أو أبي سفيان ، وكذلك على الرأي القائل بأن نصفها نزل بمكة ونصفها بالمدينة ، يكون قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ، هو مناط الحديث هنا في مقام الحديث عن بخل المشركين .

أما على الرأي القائل بأن نصفها نزل بالمدينة،أو في المنافقين فيكون موضع الحديث عن قوله تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ في مقام الحديث عن بخل المنافقين .

الخطاب في قوله عز وجل : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ لرسول الله ﷺ ، أو لكل عاقل يتأتى منه الخطاب ، « أي أرأيت يا عاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض ، فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني[2]» .

والمقصود من هذا الاستفهام هو التعجيب مِنْ شأن مَنْ نزل فيه هذا الكلام ، « والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى ﴾ يكذب بالجزاء، هو الذي ﴿ يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أي : يدفعه دفعًا عنيفًا بجفوة وأذى ، ويردّه ردًّا قبيحًا بزجر وخشونة[3]» .

والإشارة إليه باسم الإشارة الدال على البعيد لتمييزه أكمل تمييز ،

---

(١) البحر المحيط ج ١٠ ص ٥٥٢ .

(٢) التفسير الكبير ج ٣٢ ص ١١١ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٧٩٩ .

وللدلالة على بُعد منزلته في الشر والفساد والكفر ، وأنه جدير بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم عليه بأنه بخيل شحيح بِدَعِّ اليتيم وعدم الحث على إطعام المسكين .

قوله عز وجل : ﴿ فَذَلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ كناية عن شدة بخل وشح المشار إليه ، لأنه إذا كان يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وأذى ، ويرده ردًا قبيحًا بزجر وخشونة ، أو بقرع بعصا ، أو بدفعه عن حقه ومنعه ماله وقهره وظلمه ، فهذا يستلزم شدة بخله وشحه ، والتعبير بالمضارع ﴿ يَدُعُّ ﴾ يدل على تجدد وقوع هذا الفعل منه وتكرره ، « وقرأ الجمهور: ﴿ يَدُعُّ ﴾ بضم الدال وشد العين ؛ وعليّ والحسن وأبو رجاء واليماني : بفتح الدال وخف العين ، أي يتركه بمعنى لا يحسن إليه ويجفوه[1] » .

روى أبو يعلى في مسنده قال : « حدثنا علي ابن الجعد حدثنا شعبة عن علي ابن زيد قال سمعت زرارة ابن أوفى يحدث عن رجل من قومه يقال له أبو مالك أو ابن مالك سمع النبي ﷺ يقول :

" مَنْ ضَمَّ يَتِيماً بينَ مُسْلِمَيْنِ في طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّىٰ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ الْبَتَّةَ، وَمَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا ثُمَّ لَمْ يَبَرَّهُمَا، ثُمَّ دَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ "[2] » .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ كناية أيضًا عن بخل المشار إليه وهو المشرك الذي لا يؤمن بالحساب والجزاء ، وذلك لأنه إذا كان لا يحث على إطعام فهذا يستلزم شدة بخله ، لأن عدم الحض على إطعامه يدل على أنه لا يطعمه بالطريق الأولى ، والتعبير عن ذلك أيضًا بالفعل المضارع يدل على تجدد ذلك منه وتكرره .

---

(١) البحر المحيط ج ١٠ ص ٥٥٢ .

(٢) مسند أبي يَعلَى حديث رقم ٩٢٥ .

يقول الماوردي : « ﴿ وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يفعله ولا يأمر به ، وليس الذم عامًا حتى يتناول من تركه عجزًا، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم يقولون ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس / ٤٧] فنزلت هذه الآية فيهم ، ويكون معنى الكلام لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عجزوا[١] » .

ويقول الزمخشري : « ﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين ، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعني : أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد، لخشي الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه : على أنه مكذب ، فما أشدّه من كلام ، وأما أخوفه من مقام . وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدلّ بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين[٢] » .

المشركون يسلكون في سَقَرَ بالبخل

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في وضع واحد في سورة المدثر وذلك في سياق يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَـٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾ [المدثر / ٣٨ :٤٨] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن أن كل نفس مرتهنة بعملها في جهنم، إلا أصحاب اليمين ــ وهم أطفال المسلمين ، أو الملائكة ، أو المسلمون المخلصون ، أو أصحاب الحق وهم أهل الإيمان ، أو هم الذين

---

(١) النكت والعيون تفسير الماوردي ج ٦ ص ٣٥١ .
(٢) الكشاف ج ٤ ص ٧٩٩ .

يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم – فإنهم غير مرتهنين بذنوبهم ولكنهم في جنات يتساءلون عن المجرمين أي المشركين الذين سُلكوا في سقر أي في جهنم ، فقال المشركون جوابًا عن هذا التساؤل بأنهم لم يكونوا من المؤمنين الذين يُصلون ، ولم يكونوا ممن يُطعم المسكين بخلاً بما خولهم الله فيه ، وأنهم كانوا يخوضون في الباطل وفيما لا ينبغي مع الخائضين ، وأنهم كانوا يكذبون بيوم القيامة ، حتى أتاهم الموت ومقدماته ، ثم بين عز وجل أن هؤلاء المجرمين المكذبين لا تنفعهم شفاعة أحد من الشافعين في الخروج من جهنم ، والمراد انتفاء النفع لانتفاء الشفاعة .

سؤال أصحاب اليمين عن الشيء الذي سُلك به المجرمون في سقر في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ يصح أن يكون على حقيقته ، وذلك إذا كان السائل جاهلاً لما يسأل عنه ، ويصح أن يكون قد خرج عن أصله ، وذلك إذا كان السائل يعلم الشيء الذي يسأل عنه .

وهو يكون حقيقيًا إذا كان المراد من أصحاب اليمين أطفال المسلمين أو الولدان ، لأنهم لا يعرفون موجب دخول النار ، يقول الزمخشري : « وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال: أنهم إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار[1]» .

ويكون مجازيًا إذا كان السائل يعرف موجب دخول المشركين جهنم ولكنه يسألهم سؤال تبكيت وتوبيخ وتحسر ،وعلى هذا الرأي يكون السائل هم المسلمون ، أو الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم ، أو الملائكة.

ثم إن هذا التساؤل يصح أن يكون المراد منه أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضًا عن المجرمين ، ويصح أنهم يتساءلون الملائكة عن

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٤٢ .

المجرمين ، وأن الملائكة يُلقون إلى أصحاب اليمين ما جرى بينهم وبين المجرمين لما سألوهم وقالوا لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ ، وقد بين الزمخشري وجه تطابق هذا السؤال وهو سؤال للمجرمين ، و ﴿ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وهو سؤال عنهم حيث يقول : « فإن قلت: كيف طابق قوله ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ وهو سؤال للمجرمين : قوله : ﴿ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وهو سؤال عنهم ؟ وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ماسلككم قلت : ماسلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم ؛ لأنّ المسؤلين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم ماسلككم { مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه[1]» .

وقد ذكر أبو حيان أن « الأقرب أن يكون التقدير: يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾[2]».

وقد أجاب المجرمون عن هذا السؤال أن أربعة أسباب هي التي جعلتهم يسلكون في سقر وهي كما يحكي القرآن الكريم عنهم : ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

السبب الأول: أنهم لم يكونوا من المصلين ، أي من المؤمنين الذين يصلون ، وهذا كناية عن كفرهم .

السبب الثاني : أنهم لم يكونوا يطعموا المسكين ، وهذا كناية عن بخلهم ، لأنهم إذا كانوا لا يعطون المسكين ما يجب إعطاؤه فهذا يستلزم

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٤٢ .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ ص ٣٣٨ .

بخلهم،والمراد استمرارِ نفي الإطعامِ لا نفي استمرارِ الإطعامِ كما يقول أبو السعود .

السبب الثالث : أنهم كانوا يخوضون في الباطل مع الخائضين فيه ، وفي ذلك تجسيد لهذا المعنى على سبيل الاستعارة ، حيث جُعل الشروع في الباطل كالخوض في الماء،أو هو من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد ، يقول القرطبي :« أي كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر ﷺ ، وهو قولهم ــ لعنهم الله ــ كاهن ، مجنون ، شاعر ، ساحر . وقال السّديّ : أي وكنا نكّذب مع المكّذبين. وقال قتادة : كلما غوَى غاوٍ غوَينا معه . وقيل معناه : وكنا أتباعًا ولم نكن متبوعين[1]» .

السبب الرابع : أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين أي بيوم القيامة ، وهذا كناية عن كفرهم ، لأنهم إذا كانوا يكذبون بيوم القيامة ولا يؤمنون به ، فهذا يستلزم كفرهم ، يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم أُخِر التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيمًا للتكذيب . كقوله ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [البلد/ ١٧][2]» .

ثم إن هذه الآيات الكريمة قد اختتمت بقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾، لإفادة خلودهم في جهنم ، ونفي الشفاعة عنهم يفيد الاستغراق لأنه أبلغ وأنسب بالمقام كما يقول الشهاب الخفاجي .

وعلى ذلك « ليس المعنى أنهم يُشفع لهم فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم ، وإنما المعنى نفي الشفاعة فانتفى النفع ، أي لا شفاعة شافعين لهم فتنفعهم من باب :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٦٤٢ .

عـلى لاحـب لا يهتـدي بمنـاره

أي: لا منار له فيهتدي به . وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات وينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك[1]» .

المشركون يتردون في جهنم بالبخل

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضع واحد في سورة الليل ، يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل] .

بعد أن أقسم عز وجل بالليل إذا غطى النهار أو الشمس أو كل شيء يواريه بظلامه ، وبالنهار إذا ظهر وأضاء ، وبنفسه تعالى أو بخلق الذكر والأنثى ، لتأكيد أن أعمال الناس مختلفة ، « أي إنّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاصٍ . وقيل : ﴿ لَشَتَّىٰ ﴾ أي لمختلف الجزاء؛ فمنكم مثاب بالجنة ، ومعاقب بالنار. وقيل : أي لمختلف الأخلاق ؛ فمنكم راحم وقاس ، وحليم وطائش ، وجواد وبخيل ؛ وشبه ذلك[2]» .

أقول بعد أن أقسم تبارك وتعالى لتأكيد ذلك ، أخذ جل وعلا في

---

(١) البحر المحيط ج ١٠ ص ٣٣٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٨٢ .

تفصيل هذه الأعمال فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

روى الطبري قال : « حدثني هارون بن إدريس الأصمّ قال : ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربيّ ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عُبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ، عن عامر بن عبد الله بن الزّبير ، قال : كان أبو بكر الصدّيق يُعْتِق على الإسلام بمكة ، فكان يُعْتِق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أَيْ بُنَيّ ، أراك تُعْتِق أناسًا ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالاً جُلدًا يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك، فقال: أي أبت ، إنما أريد « أظنه قال » : ما عند الله ، قال : فحدثني بعض أهل بيتي، أن هذه الآية أنزلت فيه : ﴿ فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾[1] » .

أي أن مَن أعطى حقوق ماله ، واتقى محارم الله التي نهى عنها فلم يعصه ، وصدق بالخَلَفِ من الله على إعطائه ما أعطى من ماله ، أو بأن الله واحد لا شريك له ، أو بالمثوبة الحسنى وهي بالجنة ، أو بموعود الله الحسن ، فإن الله عز وجل سيهيئه للعمل بالخصلة اليسرى ، وهي العمل بما يرضي الله عز وجل المؤدي إلى دخول الجنة .

وإذا كان هذا هو شأن الإنسان المؤمن الكريم الذي يعطي حقوق ماله ... ، فإن الإنسان المشرك البخيل ... قد قال فيه عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ ، أي أم مَن بخل بالنفقة بما عنده من حقوق ماله واستغنى في نفسه وزهد بما عند الله فلم يتقه ، وكذب بالخَلَفِ ، أو بموعود الله الحسن ، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة ، فإن الله تعالى سيهيئه للخَلَة العسرى وهي العمل المؤدي إلى

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٣٠ ص ٢٢١ .

روى مسلم في صحيحه قال : « وحدّثني القَاسِمُ بْنُ زَكَرِيَّا. حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ. حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ وَهُوَ ابْنُ بِلاَلٍ حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي مُزَرِّدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه : " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ ، إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ . فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفًا. وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا "[١]» .

وروى أحمد في مسنده قال : « حدّثنا عبد الله ، حدَّثني أبي ، قال: حدَّثنا بهز و عفان قالا : ثنا حماد بن سلمة ، عن إسحاق بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: " إن ملكًا بباب من أبواب السماء يقول : من يقرض اليوم يجزى غدًا وملكًا بباب آخر يقول : اللهم أعطِ منفقًا خلفًا وعجل لممسك تلفًا "[٢]» .

وروى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثنا آدمُ حدَّثنا شُعبَةُ عن الأعمشِ قالَ: سَمِعتُ سعدَ بن عُبيدَةَ يُحدِّثُ عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ عن علي رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ ﷺ في جنازَةٍ ، فأخذ شيئًا فجعل ينكُتُ به الأرْض ، فقال : " ما منكمْ مِن أحَدٍ إلا وقد كُتب مَقعدُه من النَّار ، ومقعدُهُ من الجَنة . قالوا: يا رسولَ اللَّهِ أفَلا نتكلُ على كتابنا وندعُ العَمَلَ ؟ قال : اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لِمَا خُلِقَ له ، أما من كان من أهلِ السعادة فييسَّر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهلِ الشقاءِ فييسَّر لِعملِ أهلِ الشقاوةِ ، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الآية "[٣]».

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٢٨٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم ٨٠١١ .

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٤٨٣٠ . ونصه في صحيح مسلم « حدّثنا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ــ وَاللَّفْظُ لِزُهَيْرٍ ــ قَالَ إِسْحَـٰقُ : أَخْبَرَنَا. وَقَالَ الآخَرَانِ : حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ عَنْ =

يقول القرطبي : « قال العلماء: ثبت بهذه الآية وبقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة/ ٣] ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة/ ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق ، والبخل من أرذلها . وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع ، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء ، والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء ، فكل من استفاد بما يعطي أجرًا وحمدًا فهو الجواد . وكل من استحق بالمنع ذمًا أو عقابًا فهو البخيل . ومن لم يستفد بالعطاء أجرًا ولا حمدًا ، وإنما استوجب به ذمًا فليس بجواد ، وإنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين ، وأوجب الحجْر عليهم . ومن لم يستوجب بالمنع عقابًا ولا ذمًا ، واستوجب به حمدًا ، فهو من أهل الرشد ، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم ، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم[1]» .

جملة ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ جاءت معطوفة على جملة ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ، وذلك لاتفاقهما في الخبرية ، فضلاً عن

= عَلِيٍّ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ . فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ. وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ. فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ . ثُمَّ قَالَ : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلاَّ وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَإِلاَّ وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً " قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نَمْكُثُ عَلَىٰ كِتَابِنَا ، وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ فَقَالَ " مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ . وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ " . فَقَالَ : " اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ. أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ . وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ " . ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ » . صحيح مسلم حديث رقم ٦٦٨٢.

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٨٤ ، ٨٥ .

التقابل بين أجزائهما ، فـ ﴿ بَخِلَ ﴾ تُقابل ﴿ أَعْطَىٰ ﴾ و ﴿ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ تُقابل ﴿ ٱتَّقَىٰ ﴾ و ﴿ كَذَّبَ ﴾ تُقابل ﴿ صَدَّقَ ﴾ و ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ تُقابل ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ، وعلى ذلك بينهما توسط بين الكمالين ، « ولعلَّ تصديرَ القسمينِ بالإعطاءِ والبخلِ مع أنَّ كلاً منهما أدنى رتبةً مما بعدهُما في استتباعِ التيسيرِ لليُسرى والتيسير للعُسرى للإيذانِ بأنَّ كلاً منهما أصلٌ فيما ذكَر لا تتمةٌ لما بعدهُما من التصديقِ والتَّقوى والتكذيبِ والاستغناءِ[1] » .

ثم بين جل وعلا أن هذا الشقي المشرك البخيل لا يغني عنه مَالُه إذا هلك وتردى في جهنم ، وأنه تعالى قد بين طريق الهداية إلى الحق ، وأنذر المخاطبين نار جهنم التي تتلظى ، وأنه لا يصلى هذه النار إلا الشقي الكافر الذي كذب بالحق وأعرض عن الطاعة ، وسيُبعد عنها التقي المؤمن الذي كان يعطي ماله ويصرف في وجه الخير ، لا يبتغي بذلك إلا وجه الله تعالى و فقال سبحانه:﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْأٓخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ * فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ * لاَ يَصْلَـٰهَآ إِلاَّ ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلاَّ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ .

« روى الضحاك عن ابن عباس قال : ﴿ لاَ يَصْلَـٰهَآ إِلاَّ ٱلْأَشْقَى ﴾ أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمدًا ﷺ . وقال قتادة : كذب بكتاب الله ، وتولى عن طاعة الله[2] » .

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٦ ص ٤٣٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٨٧ .

المبحث الثالث : بخل المنافقين

بخل المنافقين عن الإنفاق في سبيل الله

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في ثلاثة مواضع :

الأول : جاء في سورة التوبة في سياق الحديث عن المنافقين ، وذلك في سياق يقول : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ * ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة /٦٦ : ٦٧] .

بعد أن بين عز وجل في الآيات السابقة أعمال المنافقين وصفاتهم المُنكرة ... ، بين تعالى في الآية الثانية من هذا السياق أن إناثهم كذكورهم في النفاق ، والأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف والبخل عن الإنفاق في سبيل الله ، والإعراض عن مرضاة الله تعالى وترك ما أمرهم به ، فجزاهم عز وجل بالإعراض عنهم والطرد من رحمته .

وقد فصلت جملة ﴿ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ عن جملة ﴿ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ لأن الجملة الثانية بيان للأولى، أي أن النفاق كله حالة واحدة سواء أكان نفاق ذكور أم إناث ، وأن العفو لا يكون إلا لمن تاب وأناب ، وأن العذاب لا يكون إلا لمن أصر على إجرامه من الذكور أو الإناث فهم سواء في الإجرام الذي استحقوا به العذاب ، فبينهم كمال اتصال ، حيث نزلت الثانية من الأولى منزلة عطف البيان من متبوعه ، يقول صاحب التحرير والتنوير : « يظهر أن تكون هذه الآية احتراساً عن أن يظنّ المنافقون أنّ العفو المفروض لطائفة منهم هو عفو ينال فريقاً منهم باقين على نفاقهم، فعقب ذلك ببيان أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ أصحابه سواء، ليعلم بذلك أن افتراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا

يكون إلاّ إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاءِ على النفاق، إلى ما أفادته الآية أيضاً من إيضاح بعض أحوال النفاق وآثاره الدالّة على استحقاق العذاب، ففصل هاته الجملة عن التي قبلها: إمّا لأنّها كالبيان للطائفة المستحقّة العذاب، وإمّا أن تكون استئنافاً ابتدائياً في حكم الاعتراض [1]» .

ويقول الزمخشري : « ﴿ بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ [التوبة/ ١٥٦] وتقرير قوله : ﴿ وَمَا هُم مّنكُمْ ﴾[2]» [التوبة/ ١٥٦] .

وعلى هذا الرأي تكون الجملة الثانية قد فصلت عن الأولى لما بينهما من كمال اتصال ؛ لأن الثانية تؤكد وتقرر كذب المنافقين والمنافقات في حلفهم أنهم من المؤمنين وتقرر أنهم ليسوا منهم لأن حالتهم تضاد حالة المؤمنين؛ فالمؤمنون ينهون عن المنكر والمنافقون والمنافقات يأمرون به ، والمؤمنون يأمرون بالمعروف والمنافقون والمنافقات ينهون عنه ، والمؤمنون ينفقون في سبيل الله أو في كل خير وهؤلاء ليسوا كذلك .

وقد فصلت جملة ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن جملة ﴿ بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾ لأن ﴿ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ تفيد أنهم متشابهون في أمر ما ، ولكنها لم تبين هذا الشيء الذي صاروا به متشابهين ، فجاءت جملة ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ موضحة ومبينة لهذا الأمر المبهم الذي لم توضحه الجملة الأولى ، وهو أنهم يأمرون بالكفر ، وينهون عن الإيمان بالله ورسوله ، ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ، فبينهما كمال اتصال ، وهذا هو ما يفهم من تأويل السمين الحلبي لهذه الجملة حيث

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٠ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٨ .

يقـول : « قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُون ﴾هذه الجملة لا محل لهـا ؛ لأنهـا مفسرة لقوله : ﴿ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ وكذلك ما عطف على يأمرون [1]».

أقول : ويصح أيضًا أن يكون سر الفصل بين هاتين الجملتين هـو شبه كمال الاتصال ؛ لأن الجملة الثانية فيها تعليل للحكم الـذي تضـمنته الجملة الأولى لأنها تثير سؤالاً عامًا عن علة هذا الحكم يقول : لماذا كـان بعضهم من بعض ؟ فكان الجواب لأنهم ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَـنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ .

أما سر عطف الجملة الثانية من هذه الجمل الثلاث على الأولـى ، وعطف الثالثة على الثانية فهو التوسط بين الكمالين ؛ لأن المتحدَّث عـنهم في الجمل الثلاث واحد وهو المنافقون ، فضلاً عن أن الأمر بالمنكر يقابل النهي عن المعروف،وإمساك اليد عن الإنفاق في سبيل الله أو في كل خير يوجد بينه أيضًا مناسبة وبين النهي عن المعروف ؛ حيث إن كلاً منهما يُعد من الصفات القبيحة التي يتصف بها المنافقون .

وقد ذكر مجاهد أن معنى ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ، أنهم لا يبسطونها بنفقة في حق ، وذكر قتادة أنهم لا يبسطونها بخير ، أو يقبضون أيديهم عن كل خير[2]، وذكر الألوسي نقلاً عن الجبائي أنهم يمسـكون أيـديهم عـن الجهاد في سبيل الله يقول : « وعن الجبائي أن المراد يمسكون أيديهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى وهو خلاف الشائع في هذه الكلمة [3]» ، وهـذا الرأي قد صرح به القرطبي حيث يقول : « وقَبْضُ أيـديهم عبـارة عـن

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون . لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبـي . تحقيق د/ أحمد محمد الخراط . طبعة دار القلم دمشق .الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م . ج ٦ ص ٨٢ .

(٢) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٧٤ .

(٣) روح المعاني ج ١٠ ص ١٣٣ .

(ترك) الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق[1]» .

أقول : لعل مراد الجبائي والقرطبي بذلك أنهم يقبضون أيديهم عن الإنفاق في الجهاد في سبيل الله ، وهذا هو ما ذكره الرازي حيث يقول : « ويقبضون أيديهم ، قيل من كل خير ، وقيل عن كل خير واجب من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله وهذا أقرب لأنه تعالى لا يذمهم إلا بترك الواجب ويدخل فيه ترك الإنفاق في الجهاد، ونبه بذلك على تخلفهم عن الجهاد، والأصل في هذا أن المعطي يمد يده ويبسطها بالعطاء. فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده[2]» .

وطريق إثبات بخل المنافقين بهذه الكناية يُعد أبلغ من التصريح ؛ وذلك لأن الكناية كما يقول البلاغيون تثبت المعنى بالدليل والبرهان ، يقول عبد القاهر : « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلاً ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة. إلا أن ذلك وإن كان معلومًا على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يَطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يُغلغل الفكر إلى زواياه ، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة . فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت : هو طويل النجاد ، وهو جم الرماد ، كان أبهى لمعناك ، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد..... . ونقطع على ذلك حتى لا يُخالجنا شك فيه ، فإنما تسكن أنفسنا تمام السكون إذا عرفنا السبب في ذلك والعلة ، ولم كان كذلك ، وهيأنا له عبارة تُفهم عنا من نُريد إفهامه وهذا هو قول في ذلك :

اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ١٩٩ .

(٢) التفسير الكبير ج ١٦ ص ١٢٦ .

الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها .

تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا : إن الكناية أبلغ من التصريح ، أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشدَّ . فليست المزية في قولهم : جم الرماد ، أنه دل على قِرًى أكثر ، بل المعنى أنك أثبت له القِرَى الكثير من وجه هو أبلغ . وأوجبته إيجابًا أشد ، وادعيته دَعْوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق.... .

أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزيَّةٌ لا تكون للتصريح ، أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه ، أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في جودها ، آكد وأبلغ في الدَّعْوى من أن تجيءَ إليها فتثبتها ساذجًا غُفلاً وذلك أنك لا تدعي ، شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط[1]» .

ثم إنه قد عُبر عن تركهم ما أمرهم الله به بالنسيان للمبالغة في بيان هذا الترك والإعراض ، أما نسيان الله عز وجل لهم ، فقد يكون في مجاز مرسل حيث عُبر بالسبب وأُريد المسبب وهو تركهم من رحمة الله تعالى وفضله وهدايته ، ويصح أن يكون في هذا التعبير مشاكلة حقيقية ، فقد عُبر عن تركهم من رحمة الله وفضله بالنسيان لوقوع ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ في صحبة ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، يقول الرازي : « اعلم أن هدا الكلام لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذماً، لأن النسيان ليس في وسع البشر، وأيضاً فهو في حق الله تعالى محال فلا

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ٧٠ وما بعدها .

بد من التأويل، وهو من وجهين: الأول: معناه أنهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسي، فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته، وجاء هذا على أوجه الكلام كقوله: ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى/٤٠] الثاني: النسيان ضد الذكر، فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء على الله ، ترك الله ذكرهم بالرحمة والإحسان، وإنما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لأن من نسي شيئاً لم يذكره، فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم[1]» .

ثم إنه تعالى قد أجمل كل ما يتصف به المنافقون من الأوصاف السابقة وهو الحلف كذبًا أنهم من المؤمنين ...،والأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف ، والبخل عن الإنفاق في سبيل الله ، وترك مرضاته وابتغاء فضله ، في عبارة مؤكدة بأكثر من مؤكد ليتقرر أن السبب في ذلك هو خروجهم عن طاعة الله جل وعلا فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، فقد أُكدت هذه الجملة بـ (إن) واللام وضمير الفصل (هم) وحصر الفسق فيهم للمبالغة في بيان كماهم في هذه الصفة الذميمة ، ففسق غيرهم إذا ما قيس بفسقهم لا يُعد شيئًا ، وهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا مجازيًا .

ثم إن مقتضى ظاهر السياق أن يكون التعبير : إنهم هم الفاسقون ، ولكن عُدل عن ذلك لزيادة تأكيد وتقرير فسقهم أي خروجهم عن طاعة الله عز وجل ، يقول صاحب التحرير والتنوير : « وجملة: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فذلكة للتي قبلها فلذلك فصلت لأنّها كالبيان الجامع[2]» .

الثاني : ورد في سورة التوبة أيضًا في سياق يقول: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ

---

(١) التفسير الكبير ج ١٦ ص ١٢٦ .

(٢) التحرير والتنوير ج ١٠ ص ٢٥٥ .

عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة /٧٥: ٧٧].

رُوي أن سبب نزول هذه الآية الكريمة « عن أبي أمامة : أن ثعلبة بن حَاطب أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : " وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ ، قَلِيلٌ تُؤدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ ، أَمَا تُرِيْدُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ رَسُولِ الله ــ ﷺ ــ لَوْ سَأَلْتُ الله ــ عزّ وجلّ ــ أَنْ تَسِيْلَ لِيَ الجِبَالُ ذَهباً وفِضَّةً لَسَالَتْ " ثم رجع إليه فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، والله لئن آتاني الله مالاً لأوتين كلَّ ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ : " اللهمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً ، اللهمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً ، اللهمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً " قال : فاتَّخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت عليه أَزِقَّةُ المدينة ، فتنحَّى بها ، وكان يشهد الصلاة مع رسول الله ﷺ، ثم يخرج إليها ، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة، فتنحَّىٰ بها، فكان يشهد الجمعة مع رسول الله ﷺ ثم يخرج إليها ، ثم نمت فتنحَّى بها فترك الجمعة والجماعات ، فيتلقىٰ الركبان فيقول : ماذا عندكم من الخبر؟ وما كان من أمر الناس؟ وأنزل الله ــ تعالى ــ على رسول الله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيْهِمْ بِهَا﴾ واستعمل رسول الله ﷺ على الصدقات رجلين من الأنصار ورَجُلاً من بني سُليم ، فكتب لهم سنة الصدقة ، وأسنانها وأمرهم أن يصدقا الناس . وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله ، ففعلا حتى دفعا إلى ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : صَدِّقَا الناس فإذا فرغتم فمروا بي ، ففعلا ، فقال : والله ما هذه إلاَّ أُخَيَّة الجزية فانطلقا حتى لحقا برسول الله ﷺ، فأنزل الله على رسوله ﷺ:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ

عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ ، قال: فركب رجل من الأنصار قريب لثعلبة راحلته حتى أتىٰ ثعلبة ، فقال : ويحك يا ثعلبة ، هلكت ، قد أنزل الله فيك من القرآن كذا ، فأقبل ثعلبة وقد وضع التراب على رأسه وهو يبكي ، ويقول : يا رسول الله ، يا رسول الله، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ (صدقته حتىٰ قبض الله رسوله ﷺ) ، ثم أتىٰ أبا بكر بعد رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بكر ، قد عرفت موضعي من قومي ومكاني من رسول الله ﷺ ، فأقبل مني ، فأبىٰ أن يقبل منه ، ثم أتى عمر فلم يقبل منه ، ثم أتى عثمان فلم يقبل منه ، ثم مات ثعلبة في خلافة عثمان .

رواه الطبراني ، وفيه : علي بن يزيد الألهاني ، وهو متروك[1]» .

وقد استبعد القرطبي أن يكون المعني بذلك ثعلبة بن حَاطب يقول:«ثعلبة بَدْرِي أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ؛ حسب ما يأتي بيانه في أوّل الممتحنة؛ فما روي عنه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجال من المنافقين نَبْتَل بن الحارث وجَدّ بن قيس ومُعَتِّب بن قشير.

قلت: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم ؛ إلا أن قوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً﴾يدلّ على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقًا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقًا ثبتوا عليه إلى الممات ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) مجمع الزوائد حديث رقم ٧٤٠١١ . وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٨٨ وما بعدها .

يَلْقَوْنَهُ ﴾[1]» .

هـــذا وقد ذكر العلماء أن الضمير المستتر في قوله جل وعلا : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ يصح أن يكون للبخل ، ويصح أن يكون لله عز وجل ، فعلى الوجه الأول يكون في إسناد الفعل ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ إلى الضمير العائـد على البخل تجوز في الإسناد ، المغزى منه المبالغة في قوة سببية البخـل في كونه قد أورثهم نفاقًا راسخًا من الكفر وسوء العقيدة ، أي فـأعقبهم الله نفاقًا في قلوبهم بسبب بخلهم الذي منعوا به حق الله تعلى في مالهم الـذي أعطاهم الله إياه من فضله ، من الصدقة وغيرها من الإنفاق في الخيـر ، وأعمال البر ، والوفاء بما ضمنوا والتزموا .

وحمل المعنى على هذا الوجه يكون مرجع الضمير في قوله جـل ثناؤه : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ هو البخل أيضًا ، أي فأعقبهم البخل نفاقًا فـي قلوبهم إلى يوم يلقون هذا البخل أي جزاءه يوم القيامة .

وعلى الوجه الآخر ، الذي ذكر فيه أصحابه أن الضمير في قولـه سبحانه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ لله عز وجل ، يكون الإسناد حقيقيًا ، أي فلما أعطاهم الله تعالى من فضله بخلوا بما عاهدوا الله عليه من الصدقة والإنفاق في أعمال الخير وتولوا عن طاعته وأعرضوا ، فأعقبهم الله نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه تعالى ، وقد ذكر القرطبـي أن حمل المعنى على هذا الوجه فيه « دليل على أنه مات منافقاً. وهو يبعد أن يكون المنزّل فيه ثعلبة أو حاطب؛ لأن النبيّ ﷺ قال لعمر: " وما يـدريك لعلّ الله اطلّع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ". وثعلبـة وحاطب ممن حضر بدراً وشهدها [2]» .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٢١٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٢١٢ .

وتنكير لفظ ﴿ نِفَاقًا ﴾ يفيد النوعية ، أي أعقبهم نوعًا من النفاق راسخًا في قلوبهم ليس لهم منه توبة ولا مغفرة ولا عفو كما يقول ابن زيد، يقول الطبري : « حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد ، في قوله: وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ... الآية ، قال:هؤلاء صنف من المنافقين ، فلما آتاهم ذلك بخلوا به فلما بخلوا بذلك أعقبهم بذلك نفاقا إلى يوم يلقونه ، ليس لهم منه توبة ولا مغفرة ولا عفو ، كما أصاب إبليس حين منعه التوبة[1]» .

ولعل هذا يؤكد ما ذهب إليه القرطبي بأن المنزل فيه ثعلبة أو حاطبًا

هذا ، وقد ذكر الطبري أن في هذه الآية الكريمة الإبانة من الله تعالى عن علامة أهل النفاق ، يقول : « حدثني القاسم بن بشر بن معروف، قال : ثنا أسامة ، قال : ثنا محمد المخرمي ، قال : سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ : " ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنافِقٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإذا اؤتُمِنَ خانَ[2]" فقلت للحسن : يا أبا سعيد لئن كان لرجل عليّ دين فلقيني ، فتقاضاني وليس عندي ، وخفت أن يحبسني ويهلكني، فوعدته أن أقضيه رأس الهلال فلم أفعل، أمنافق أنا ؟ قال: هكذا جاء الحديث. ثم حدّث عن عبد الله بن عمرو أن أباه لما حضره الموت، قال: زوّجوا فلانا فإني وعدته

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٩١ .

(٢) رَوى هذا الحديث أيضًا عن الحسن الإمامُ أحمد في مسنده حديث رقم ١٠٦٩٥ ، ورواه ابن حبان : صحيح ابن حبَّان : لأبي حاتم البستي محمد بن حبَّان بن أحمد بن حَبَّان بن معاذ بن معبد التميمي ، نشر دار الفكر .عن أبي هريرة حديث رقم ٢٥٦ . ورواه البيهقي: السنن الكبرى . لأحمد بن الحسين بن علي . طبعة دار الفكر . عن أبي هريرة أيضًا حديث رقم ١٢٨٣٧ .

أن أزوجه، لا ألقى الله بثلث النفاق قال : قلت : يا أبا سعيد ويكون ثلث الرجل منافقا وثلثاه مؤمن ؟ قال : هكذا جاء الحديث . قال : فحججت فلقيت عطاء بن أبي رباح ، فأخبرته الحديث الذي سمعته من الحسن ، وبالذي قلت له وقال لي . فقال: أعجزت أن تقول له : أخبرني عن إخوة يوسف عليه السلام ، ألم يَعِدوا أباهم فأخلفوه وحدّثوه فكذَبوه وأتمنهم فخانوه، أفمنافقين كانوا ؟ ألم يكونوا أنبياء أبوهم نبيّ وجدّهم نبيّ ؟ قال : فقلت لعطاء : يا أبا محمد حدثني بأصل النفاق ، وبأصل هذا الحديث فقال: حدثني جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ إنما قال هذا الحديث في المنافقين خاصة الذين حدّثوا النبيّ فكذبوه ، وأتمنهم على سرّه فخانوه ، ووعدوه أن يخرجوا معه في الغزو فأخلفوه . قال : وخرج أبو سفيان من مكة ، فأتى جبريل النبي ﷺ ، فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : " إنَّ أبا سُفْيانَ فِي مَكانِ كَذَا وكَذَا ، فاخْرُجُوا إلَيْهِ وَاكْتُمُوا " قال : فكتب رجل من المنافقين إليه أن محمدا يريديكم ، فخذوا حذركم ، فأنزل الله : ﴿ لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أماناتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وأنزل في المنافقين : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضله ﴾ إلى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ فإذا لقيت الحسن فاقرئه السلام وأخبره بأصل هذا الحديث وبما قلت لك فقدمت على الحسن فقلت له إن أخاك عطاء يقرئك السلام فأخبرته بالحديث الذي حدّث وما قال لي. فأخذ الحسن بيدي فأمالها وقال: يا أهل العراق أعجزتم أن تكونوا مثل هذا ؟ سمع مني حديثًا فلم يقبله حتى استنبط أصله ، صدق عطاء هكذا الحديث ، وهذا في المنافقين خاصة[1]».

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

شح المنافقين على المؤمنين بالخير

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضعين :

الأول : جاء في سورة الأحزاب في سياق يقول : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّـهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب / ١٨ :١٩] .

تتحدث هاتان الآيتان الكريمتان عن تثبيط المنافقين الناس عن حضور الحرب والقتال مع رسول الله ﷺ ، وأنهم كانوا لا يشهدون الحرب مع المؤمنين إلا قليلاً إذا اضطروا إلى ذلك ، وأنهم يبخلون على المؤمنين بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله ، وأنهم إذا جاء القتال أصابهم فزع وهلع شديد ، وإذا ذهب خوفهم وانقطعت الحرب وظفر المؤمنون ، طعنوا المؤمنين وآذوهم بألسنتهم وبخلوا بالغنيمة ، وقد أخبر تعالى أنه قد أبطل أعمالهم بسبب ذلك ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله تعالى ، وأن إبطال أعمالهم أمر يسير على الله جل وعلا .

يقول الطبرى : « حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة، قوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ المُعَوّقِينَ مِنْكُمْ والقائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ ﴾ قال:هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم:ما محمد وأصحابه إلاَّ أكلة رأس ، ولو كانوا لحمًا لا لتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك...[1]» .

(قد) في قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾

---

(١) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢١ ص ١٣٩ .

« للتحقيق ، أو لتقليله باعتبار متعلقه وبالنسبة لغير معلوماته ، ومنكم بيان للمعوقين لا صلته[1]» .

وقوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ « أي بخلاء عليكم ؛ أي بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم . وقيل : أشِحّةً بالغنائم إذا أصابوها؛ قاله السدي[2]» ، وفي ذلك « إشارة إلى غاية جبنهم ونهاية روعهم ، واعلم أن البخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذي يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه في سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر، فلا يرجو الغنيمة فيقول : هذا إنفاق لا بدل له فيتوقف فيه ، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه إخراج المال في القتال طمعًا فيما هو أضعاف ذلك، وأما بالنفس والبدن فكذلك فإن الجبان يخاف قِرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام ، وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم[3]».

ثم إنه تعالى قد كشف عن شدة خوفهم وهلعهم وجزعهم وقت الحرب فقال : ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، فقد شُبه حالهم في تقليب أعينهم من الخوف والهلع والجزع وقت الحرب ، بحال نظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت ، يقول الزمخشري:« ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ في تلك الحالة كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرًا أو خورًا ولواذًا بك ، فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة : نقلوا ذلك الشحّ وتلك الضنّة والرفرفة عليكم إلى الخير — وهو المال والغنيمة — ونسوا تلك الحالة

---

(١) حاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٧٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) التفسير الكبير ج ٢٥ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

الأولى ، واجترءوا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوّكم وبنا نصرتم عليهم[1]» .

تفسير الزمخشري لقوله تعالى ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ على أنه ضربوكم بألسنتهم ، أي بألسنة ذَرِبة ، يفيد أن ذلك « مجاز كما يقال للذمّ طعن ، والحامل عليه توصيف الألسنة بقوله : ﴿ حِدَادٍ ﴾ ، ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية ، ويثبت له الضرب تخييلاً ، و ذَرِبة بفتح فكسر للراء المخففة ثم موحدة ، بمعنى محدودة مسنونة[2]» .

ثم إنه تعالى قد وصفهم بالشح المتبالغ في الحرص على المال ، أو ما فيه منفعة لهم مطلقًا فقال : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ ، يقول البيضاوي : « ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ نصب على الحال أو الذم ، ويؤيده قراءة الرفع وليس بتكرير لأن كلا منهما مقيد من وجه[3]» ، يريد أن هذه الجملة ليست تكرارًا لجملة ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ ، لأن تغاير القيدين جعلهما متغايرتين كما ذكر الشهاب ،ويقول الألوسي:« ويمكن أن يقال في الفرق بين هذا وما سبق: إن المراد مما سبق ذمهم بالبخل بكل ما فيه منفعة أو بنوع منه على المؤمنين ،ومن هذا ذمهم بالحرص على المال أو ما فيه منفعة مطلقًا من غير نظر إلى كون ذلك على المؤمنين أو غيرهم وهو أبلغ في ذمهم من الأول[4]» .

وإذا كان هذا هو شأن المنافقين الموصوفين بتلك الصفات فإنه تعالى قد أشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد لبيان بعدهم في صفات السوء والباطل والشح المتبالغ على كل خير ، وأنهم أحرياء بما يرد بعد

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٥١٤ .

(٢) حاشية الشهاب ج ٤ ص ٤٧٤ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٧ ص ٤٧٤ .

(٤) روح المعاني ج ٢١ ص ١٦٦ .

اسم الإشارة من نفي الإيمان عنهم ، وإبطال عملهم ، لأنهم لم يقصدوا به وجه الله تعالى فقال : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

الآخر : ورد في سورة المنافقون في سياق يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ * هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْهَا ٱلأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْهَا ٱلأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون /٥: ٨] .

روى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثنا عبدُ الله بن رَجاءٍ حدثنا إسرائيلُ عن أبي إسحاقَ عن زيدِ بن أرقم قال: " كنتُ في غَزاةٍ فسمعت عبدَ الله بنَ أبيٍّ يقول : لا تُنفقوا على مَن عندَ رسولِ الله حتى ينفَضُّوا من حَوله ، ولئن رَجعنا من عنده ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . فذكرتُ ذلك لعمِّي ــ أو لعمرَ ــ فذكرَه للنبيِّ ﷺ ، فدَعاني فحدَّثته ، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى عبدِ الله بن أبيّ وأصحابه فَحلَفوا ما قالوا ، فكذَّبني رسولُ الله ﷺ وصدَّقَه فأصابَني همٌّ لم يُصبني مثلُهُ قطُّ ، فجَلَستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسولُ الله ﷺ ومَقَتَك ، فأنزلَ الله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ فبعث إليَّ النبيُّ ﷺ فَقَرَأَ فقال: " إن الله قد صدَّقَكَ يا زيد"[1]» .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٨٠ .

وروى البخاري أيضًا عن جابر قال : « حدَّثَنا عليٌّ حدَّثَنا سفيانُ قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبدِ الله رضي اللَّهُ عنهما قال : "كنَّا في غَزاةٍ ــ قال سفيان مَرة في جيش ــ فكَسعَ رجلٌ مِن المهاجرينَ رجلاً منَ الأنصار ، فقال الأنصاريُّ : يا لَلأنصار، وقال المهاجريُّ : يا لَلْمهاجرين. فسمع ذاك ﷺ فقال : ما بالُ دعوى جاهليةٍ ؟ قالوا : يا رَسولَ الله كَسعَ رجلٌ من المهاجِرين رجلاً من الأنصار ، فقال : دَعُوهَا فإنها مُنْتِنَةٌ . فسمع بذلك عبدُ الله بن أُبيّ فقال : فَعَلوها ؟ أما والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرجَن الأعزُّ منها الأذل. فبلغ النبيَّ ﷺ فقامَ عُمرُ فقال : يا رسولَ الله دَعني أضربْ عُنقَ هذا المنافق ، فقال النبيُّ ﷺ : دَعْهُ ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَه وكانت الأنصارُ أكثرَ منَ المهاجرين حينَ قَدِموا المدينة ، ثم إنَّ المهاجرين كثرُوا بَعْدُ" . قال سفيانُ : " فحفظته من عَمرو، قال عَمرو: سمعتُ جابراً كنَّا مع النبيِّ ﷺ.." [1]» .

وروى ذلك الترمذي قال : « حدثنا ابنُ أَبي عُمَرَ ، أخبرنا سُفْيَانُ عَن عَمْرِو بنِ دِينَارٍ سَمِعَ جَابِرَ بنَ عَبْدِ الله ، يَقُولُ : " كُنَّا في غَزَاةٍ قالَ : سُفْيَانُ يَرَوْنَ أَنَّهَا غَزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِقِ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فقالَ المُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، وقالَ الأَنْصَارِيُّ يا لَلأَنْصَار، فَسَمِعَ ذَلِكَ النبيُّ : فَقَالَ مَا بالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قالُوا رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فقالَ النبيُّ دَعُوها فإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ . فَسَمِعَ ذَلِكَ عَبْدُ الله بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُولَ. فقالَ : أَوَ قَدْ فَعَلُوهَا ؟ وَالله لَئِنْ رَجِعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ فقالَ عُمَرُ: يا رسُولَ الله دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فقالَ النبيُّ : دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحمداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ . وقالَ غَيْرُ عَمْرٍو: فقالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ الله: والله لا تَنْقَلِبْ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٨٥ .

الذَّلِيلُ ورسولَ الله العَزِيزُ ففَعَلَ ".

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ[1] » .

وروى الترمذى أيضًا قال : « حدثنا عَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ ، حدثنا عُبَيْدُ الله بنُ مُوسَى عَن إِسْرَائِيلَ عَن السُّدِّيّ عَن أبي سَعِيدٍ الأَزْدِي ، حدثنا زَيْدُ بنُ أَرْقَمَ ، قالَ: " غَزَوْنَا مَعَ رسولِ الله وكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ المَاءَ وكَانَ الأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا إِلَيْهِ فَسَبَقَ أَعْرَابِيٌّ أَصْحَابَهُ فَيَسْبِقُ الأَعْرَابِيُّ فَيَمْلأُ الحَوْضَ ويَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً وَيَجْعَلُ النَّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ ، قالَ : فأَتَى رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ فَأَبَى أَنْ يَدَعَه فانْتَزَعَ قِبَاضَ المَاءِ فَرَفَعَ الأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ . فَأَتَى عَبْدَ الله بنَ أُبَيٍّ رَأْسَ المُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ وكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَغَضِبَ عَبْدُ الله بنُ أُبَيٍّ ثُمَّ قَالَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ يَعْنِي الأَعْرَابَ . وكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ الله عِنْدَ الطَّعَامِ ، فقَالَ عَبْدُ الله إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَأْتُوا مُحَمَّدًا بالطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ ، ثُمَّ قالَ لأَصْحَابِهِ : لَئِنْ رَجِعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنها الأَذَلَّ . قَالَ زَيْدٌ وَأَنَا رِدْفُ رسولِ الله فَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بن أُبَيٍّ فأَخْبَرْتُ عَمِّي فانْطَلَقَ فأَخْبَرَ رَسُولَ الله ، فأَرْسَلَ إِلَيْهِ رسُولُ الله فَحَلَفَ وجَحَدَ . قالَ : فَصَدَّقَهُ رسولُ الله وكَذَّبَنِي ، قَالَ فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ فَقَالَ ما أَرَدْتَ إِلاَّ أَن مَقَتَكَ رَسُولُ الله وكَذَّبَكَ والمُسْلِمُونَ ، قالَ : فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ ، قالَ : فَبَيْنَمَا أنا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ الله في سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الهَمِّ إِذْ أَتَانِي رَسُولُ الله فَعَرَكَ أُذُنِي وضَحِكَ في وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ في الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّ أَبَا

---

(١) سنن الترمذي : لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي . نشر دار الكتب العلمية ١٩٩٤ . حديث رقم ٣٤٤١ .

بَكْرٍ لَحِقَنِي فقالَ : ما قالَ لَكَ رسولُ الله ؟ قُلْتُ مَا قالَ لِي شَيْئًا إلاَّ أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ في وَجْهِي . فقالَ : أَبْشِرْ ، ثمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لأبي بَكْرٍ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسولُ الله سُورَةَ المُنَافِقِينَ " .

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ (١)» .

جملة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ كناية عن إعراض المنافقين واستكبارهم واستهزائهم ، لأن تحريك رؤوسهم وهزّها حين يُطلب منهم ذلك يستلزم ما أشرت إليه

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المثبت في قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ يؤكد معنى هذه الكناية ، وهو الإصرار على الإعراض والتكبر عن المصير إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، والتعبير بالفعل المضارع ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ يدل على تجدد ذلك منهم ، وهذا يقوي قراءة ﴿ لَوَّوْاْ ﴾ بالتشديد التي تفيد تكثير وقوع هذا الفعل منهم ، على قراءة نافع ﴿ لوَوْا ﴾ بتخفيف الواو .

ثم بين تعالى أنه لن يغفر لهؤلاء المنافقين المصرين على الإعراض والاستكبار وعدم الذهاب لرسول الله ﷺ ليستغفر لهم من جنايتهم ، سواء استغفر لهم الرسول ﷺ أم لم يستغفر لهم ، وذلك لكمالهم في الفسق والكفر والنفاق ، فقال : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

جملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ تعليل لبيان عدم مغفرة الله تعالى لهؤلاء المنافقين في قوله : ﴿ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، لذا فُصلت عنها لما بينهما من استئناف بياني ، حيث إن جملة ﴿ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ تثير سؤالاً تقديريًا خاصًا قد أشارت إليه تلك الجملة تقديره : هو تعالى لا

---

(١) سنن الترمذي حديث رقم ٣٤٣٩ .

يغفر لهؤلاء المنافقين ألأنه سبحانه لا يهدي القوم الفاسقين ؟ فجاء الجواب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ ، وقد أُكد هذا الجواب بـ (إن) لأنه لما لُوح بالحكم عليهم بعدم الهداية استشرف المخاطب لمعرفة هذا الحكم وصار بمنزلة المتردد فيه ، لذا أُكد بـ (إن) لإزالة هذا التردد التنزيلي .

هذا ومقتضى ظاهر السياق يقتضي أن يكون التعبير : إنه لا يهدي القوم الفاسقين ، ولكن عُدل عن ذلك ووضُع الاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة موضع الضمير « لبيان غلوهم في الفسق أو الجنس وهم داخلون في زُمرتهم دُخولاً أوليًا[1]» .

ثم إن هذه الجملة أعني ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ تُثير سؤالاً عامًا عن سر عدم هداية الله تعالى لهم ، أي كأن سائلاً قد سأل : لماذا لا يهدي الله القوم الفاسقين ؟ فكان الجواب ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾ ، يقول الشهاب : « قوله : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ... الخ ﴾ تعليل لرسوخهم في الفسق لا لعدم المغفرة لأنه معلل بما قبله[2]» .

وقد« افتتحت الجملة بضميرهم الظاهر دون الاكتفاء بالمستتر في ﴿ يَقُولُونَ ﴾ معاملة لهم بنقيض مقصودهم فإنهم ستروا كيدهم بإظهار قصد النصيحة ففضح الله أمرهم بمزيد التصريح ، أي قد علمتُ أنكم تقولون هذا . وفي إظهار الضمير أيضًا تعريض بالتوبيخ كقوله تعالى: ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [ص : ٦٠] وليَكون للجملة الاسمية إفادةُ ثبات الخبر، وليكون الإتيان بالموصول مشعرًا بأنهم عرفوا بهذه الصّلة . وصيغة

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٢) حاشية الشهاب ج ٩ ص ١٨٢ .

المضارع في ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يشعر بأنّ في هذه المقالة تتكرّر منهم لقصد إفشائها[1]» .

يقول الزمخشري : « وقرىء : " يَنْفِضُو ا" من أنفض القوم إذا فنيت أزوادهم . وحقيقته : حان لهم أن ينفضوا مزاودهم[2]» .

وقد رد عز وجل عليهم هذا الزعم الباطل وهو أن عدم إنفاقهم على من عند رسول الله ﷺ يؤدي إلى تفرقهم أو أن ينفضوا مزاودهم فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ .

تقديم المسند في هذه الجملة وهو ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ على المسند إليه وهو ﴿ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ يفيد التخصيص ، أي قصر خزائن السماوات والأرض على كونها مملوكة لله عز وجل ، قصر قلب ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، يقول الماوردي : «﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما: خزائن السموات : المطر ، وخزائن الأرضين : النبات .

الثاني : خزائن السموات : ما قضاه ، وخزائن الأرضين: ما أعطاه.

وفيه لأصحاب الخواطر (ثالث) : أن خزائن السموات : الغيوب وخزائن الأرض القلوب[3]» .

وقد أكد تبارك وتعالى بـ (لكنّ) جهل المنافقين بهذه الحقيقة وهي أن الأرزاق بيده سبحانه وتعالى لا بيدهم فقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

قوله تعالى حكاية عن المنافقين : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٢٤٦ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٣١ .

(٣) النكت والعيون تفسير الماوردي ج ٦ ص ١٨ .

لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ ، يقول أبو حيان : « وقرأ الجمهور: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ : فالأعز فاعل ، والأذل مفعول ، وهو من كلام ابن سلول ، كما تقدم . ويعني بالأعز : نفسه وأصحابه ، وبالأذل : المؤمنين . والحسن وابن أبي عبلة والسبي في اختياره : لنخرجن بالنون ، ونصب الأعز والأذل ، فالأعز مفعول ، والأذل حال . وقرأ الحسن ، فيما ذكر أبو عمر والداني : لنخرجن بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ، ونصب الأعز على الاختصاص ، كما قال : نحن العرب أقرى الناس للضيف ؛ ونصب الأذل على الحال ، وحكى هذه القراءة أبو حاتم . وحكى الكسائي والفراء أن قومًا قرأوا : ليخرجن بالياء مفتوحة وضم الراء ، فالفاعل الأعز ، ونصب الأذل على الحال . وقرىء : مبنيًا للمفعول وبالياء، الأعز مرفوع به ، الأذل نصبًا على الحال. ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين ، فما كان منها بأل فعلى زيادتها ، لا أنها معرفة[1]» .

وقد روى الترمذي في الحديث الذي ذُكر في سبب النزول أن عبدالله بن عبدالله بن سلول قال لأبيه : والله لا تَنْقَلِبْ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ ورسولَ الله العَزِيزُ فَفَعَل .

وروى الطبري عن ابن زيد قال : « حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قول الله ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ قال : كان المنافقون يسمون المهاجرين : الجلابيب وقال : قال ابن أُبي: قد أمرتكم في هؤلاء الجلابيب أمري، قال: هذا بين أمَجٍ وعُستان على الكديد تنازعوا على الماء ، وكان المهاجرون قد غلبوا على الماء قال: وقال ابن أبي أيضا: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ لقد

---

(١) البحر المحيط ج ١٠ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

قلت لكم: لا تنفقوا عليهم ، لو تركتموهم ما وجدوا ما يأكلون ، ويخرجوا ويهربوا فأتى عمر بن الخطاب إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أُبي؟ قال: " وما ذاك ؟ " فأخبره وقال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله، قال : " إذا تَرْعَدُ لَهُ آنفٌ كَثِيرَةٌ بِيَثْرِب " قال عمر: فإن كرهت يا رسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين ، فمرّ به سعد بن معاذ ، ومحمد بن مسلمة فيقتلانه فقال رسول الله ﷺ : " إنّي أكْرَهُ أنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أصحَابَهُ ، ادْعُوا لي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْن أُبي " ، فدعاه، فقال: " ألا تَرَى ما يَقُولُ أبُوكَ؟ " قال: وما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: " يَقُولُ لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلَّ " فقال: فقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الأعزُّ وهو الأذلُّ ، أما والله لقد قَدِمت المدينة يا رسول الله ، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرّ مني، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتِيَنَّها به، فقال رسول الله ﷺ : " لا " فلما قَدِموا المدينة، قام عبد الله بن عبد الله بن أُبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، أما والله لتعرفنّ العزّة لك أو لرسول الله ، والله لا يأويك ظله، ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله فقال: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي يا للخزرج ابني يمنعني بيتي فقال: والله لا تأويه أبدًا إلا بإذن منه فاجتمع إليه رجال فكلموه ، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبيّ ﷺ فأخبروه، فقال: " اذْهَبُوا إلَيْهِ، فَقُولُوا له خَلِّهِ ومَسْكَنَه " فأتوه، فقال: أما إذا جاء إمر النبيّ ﷺ فنعم[1]».

وقد ردَّ جل وعلا عليهم هذا القول بأسلوب مؤكد بأقوى طرق التوكيد وهو القصر حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٨ ص ١١٤ ، ١١٥ .

قلب تعالى القول الذي قاله ابن سلول ، وأثبت سبحانه العزة والقوة والغلبة لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين،يقول الشهاب:« قيل : إن العطف هنا معتبر قبل نسبة الإسناد ، فلا ينافي تقديم الخبر المفيد للحصر ، ولا يضره إعادة الجار لأنها ليست لإفادة الاستقلال في النسبة ، بل لإفادة تفاوت ثبوت العزة ، فإن ثبوتها له تعالى ذاتي ، وللرسول ﷺ بواسطة الرسالة ، وللمؤمنين بواسطة الإيمان[1]» .

ثم إنه تعالى قد أكد جهل المنافقين بذلك لفرط غرورهم فقال : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول الرازي مبينًا سر ختم هذه الآية الكريمة بهذه الجملة ، وختم الآية السابقة بجملة ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ : « فإن قيل: قال في الآية الأولى:﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ وفي الأخرى ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم، ولا يفقهون من فقه يفقه ، كعلم يعلم ، ومن فقه يفقه : كعظم يعظم ، والأول لحصول الفقه بالتكلف والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي ، والثاني مزاجي[2]» .

بخل المنافقين بالماعون

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضع واحد في سورة الماعون ، وذلك في سياق يقول : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون / ٤ : ٧]

لقد تحدثت من قبل عن رأي العلماء فيمن نزلت فيهم هذه الآيات الكريمة ، وهم المنافقون وذلك في مقام حديثي عن أن المشركين يسلكون

---

(١) حاشية الشهاب ج ٩ ص ١٨٣ .

(٢) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٨ .

سقَرَ ببخلهم [1] .

روى أبو يعلى في مسنده قال : « حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا عكرمة بن إبراهيم الأزدي حدثنا عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه :« سأل النبي ﷺ عن ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال: "هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها"[2]».

وروى الطبري عن أبي كُرَيب قال : « قال: ثنا معاوية بن هشام، عن شبيان النحويّ، عن جابر الجُعْفِيّ، قال: ثني رجل، عن أبي بَرْزة الأسلميّ، قال: قال رسول الله ﷺ ، لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ ﴾: " الله أكبرُ هذه خيرٌ لكم من أن لو أُعطيَ كلّ رجل منكم مثلَ جميع الدنيا هو الذي إن صلى لم يرجُ خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه"[3]» .

وروى الطبري أيضًا قال : « حدثني عليّ ، قال: ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ ﴾ فهم المنافقون كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضًا لهم ، وهو الماعون[4]» .

ذكر الزمخشري أن جملة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ واقعة في جواب شرط محذوف ، يقول بعد أن بين أن مَن يكذب بالدين هو من لم يؤمن بالجزاء ولم يوقن بالوعيد ولم يخش الله تعالى وعقابه: « ثم وصل به قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ كأنه قال : فإذا كان

---

(١) ينظر ص ٨٤ ، ٨٥ من هذا البحث

(٢) مسند أبي يعلى حديث رقم ٨٢٠ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٣٠ ص ٣١٣ .

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٣٠ ص ٣١٢ .

الأمر كذلك ، فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها ، حتى تفوتهم أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف ولكن ينقرونها نقرًا من غير خشوع وإخبات ولا اجتناب لما يكره فيها: من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السور، كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم . والمعنى: أن هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة ـ التي هي عماد الدين ، والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبه من الشرك ، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام ـ علمًا على أنهم مكذبون بالدين...[1]» .

وذكر أبو حيان أن هذه الجملة مرتبة على ما قبلها يقول : « ولما ذكر أولاً عمود الكفر ، وهو التكذيب بالدين ، ذكر ما يترتب عليه مما يتعلق بالخالق ، وهو عبادته بالصلاة ، فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ والظاهر أن المصلين هم غير المذكور . وقيل : هو داع اليتيم غير الحاض ، وأن كلاً من الأوصاف الذميمة ناشىء عن التكذيب بالدين ، فالمصلون هنا ، والله أعلم ، هم المنافقون ، ثبت لهم الصلاة ، وهي الهيئات التي يفعلونها[2]» .

والويل : هو « الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمنافقين الذين يصلون ، لا يريدون الله عزّ وجلّ بصلاتهم، وهم في صلاتهم ساهون إذا صلوها[3]» .

وقد قُدم المسند إليه ﴿ هُمْ ﴾ على الخبر المشتق وهو اسم الفاعل

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٧٩٩ .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ ص ٥٥٢ ، ٥٥٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٣٠ ص ٣١١ .

﴿ سَاهُونَ ﴾ لتأكيد وتقرير أن الويل لهم ، وفي ذلك من التهديد ما فيه .

« قال ابن عباس: ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين.

وقال عطاء : الحمد لله الذي قال : ﴿ عَنْ صلاتِهِم﴾ ولم يقل في صلاتهم[1]» .

وقد زاد الزمخشري هذا المعنى بيانًا حيث يقول : « فإن قلت : أيّ فرق بين قوله : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ ﴾ وبين قولك:(في صلاتهم)؟ قلت : معنى : (عن) : أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين . ومعنى (في) : أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم .

وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره ؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم . وعن أنس رضي الله عنه : الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم . وقرأ ابن مسعود : (لاهون)[2]» .

وقُدم المسند إليه أيضًا ﴿ هُمْ ﴾ على الخبر الفعلي﴿ يُرَآءُونَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ لتأكيد وتقرير أنهم لا يريدون بصلاتهم وجه الله عز وجل ، وإنما يقصدون بها الرياء والسمعة .

ثم إنه قد عُطف على ذلك قوله عز من قائل : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ .

ذكر القرطبي أن في ﴿ ٱلْمَاعُونَ ﴾ اثني عشر قولاً ، يقول : ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ فيه اثنا عشر قولاً : الأول : أنه زكاة أموالهم . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه مثل ذلك، وقاله مالك . والمراد به المنافق يمنعها . وقد روَى أبو بكر بن عبد العزيز عن مالك قال : بلغني أن قول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٢١٢ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٧٩٩ ، ٨٠٠ .

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ قال : إن المنافق إذا صلّى صلّى رياء ، وإن فاتته لم يندم عليها ، ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ التي فرض الله عليهم . قال زيد بن أسلم : لو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا . القول الثاني : أن (الماعون) المال ، بلسان قريش ؛ قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيب . وقول ثالث : أنه اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك ؛ قاله ابن مسعود ، وروي عن ابن عباس أيضًا . قال الأعشى :

بِأَجْوَدَ مِنهُ بِماعونِهِ إِذا ما سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَغِمِ

الرابع : ذكر الزجاج وأبو عُبيد والمبرّد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة ، حتى الفأس والقدر والدلو والقدّاحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ؛ وأنشدوا بيت الأعشى . قالوا : والماعون في الإسلام : الطاعة والزكاة ؛ وأنشدوا قول الراعي :

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمٰنِ إِنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلاَ
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ مِن أَمْوالِنا حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلاَ
قَومٌ على الإسلامِ لَمَّا يمْنَعُوا ماعُونَهُمْ ويُضَيِّعُوا التهليلاَ

يعني الزكاة . الخامس : أنه العارِيَّة ؛ روي عن ابن عباس أيضًا. السادس : أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم ؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ . السابع : أنه الماء والكَلأ . الثامن : الماء وحده . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون : الماء ؛ وأنشدني فيه :

يَمَجّ صَبِيرُه الماعونَ صَبًّا

الصَّبير : السحاب . التاسع : أنه منع الحق ؛ قاله عبد الله بن عمر. العاشر: أنه المستغل من منافع الأموال ؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل ؛ حكاه الطبريّ وابن عباس . قال قطرب : أصل الماعون من القلة . والمعن: الشيء القليل ؛ تقول العرب : ماله سَعْنة ولا معنة ؛ أي شيء قليل . فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونًا؛ لأنه قليل من كثير. ومن الناس من قال: الماعون: أصله مَعُونة ، والألف

عوض من الهاء؛ حكاه الجوهريّ . ابن العربيّ : الماعون : مفعول من أعان يعين ، والعَوْن : هو الإمداد بالقوّة والآلات والأسباب الميسرة للأمر. الحادي عشر : أنه الطاعة والانقياد . حكى الأخفش عن أعرابي فصيح : لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعًا تعطيك الماعون ؛ أي تنقاد لك وتطيعك. قال الراجز:

مَتَى تصادِفْهُنَّ في الْبرِينِ يَخْضعن أو يُعطِين بالماعونِ

وقيل : هو ما لا يحل منعه ، كالماء والملح والنار ؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت : يا رسول الله ، ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال: " الماء والنار والملح " قلت: يا رسول الله هذا الماء ، فما بال النار والملح ؟ فقال : " يا عائشة من أعطى نارًا فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحًا فكأنما تصدق بجميع ما طيب به ذلك الملح ، ومن سقَى شَربة من الماء حيث يوجد الماء ، فكأنما أعتق ستين نسمة . ومن سقَى شربة من الماء حيث لا يوجد ، فكأنما أحيا نَفْسًا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا " . ذكره الثعلبيّ في تفسيره ، وخرّجه ابن ماجه في سننه . وفي إسناده لين ؛ وهو القول الثاني عشر[1]» .

وهكذا تجد أن المقصود من وصف المنافقين بذلك هو الكناية عن بخلهم ، لأن منعهم كل ما ينتفع به الناس ويتعاورونه يستلزم بخلهم ، وفي ذلك من المبالغة في إثبات هذا المعنى ما لا يكون في وصفهم بذلك وصفًا صريحًا .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٢١٣ وما بعدها .

المبحث الرابع :بخل المؤمنين

تحذير المؤمنين عن البخل

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في سورة محمد في سياق يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوٰلَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ * هَآ أَنتُمْ هَٰؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد/ ٣٦: ٣٨] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن التحذير من الحياة الدنيا ، والحث على الإنفاق في سبيل الله ، والتحذير عن البخل .

وقد صاغ القرآن الكريم أسلوب التحذير من الحياة الدنيا في أسلوب قصر لتأكيد هذا المعنى فقال:﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ فقد قصر الحياة الدنيا على اللعب واللهو قصر موصوف على صفة قصرًا مجازيًا ، للمبالغة في التحذير منها حتى لا يركن المؤمنون إليها « إلا ما كان منها لله من عمل في سبيله ، وطلب رضاه . فأما ما عدا ذلك فإنما هو لعب ولهو ، يضمحلّ فيذهب ويندرس فيمرّ، أو إثم يبقى على صاحبه عاره وخزيه[1]» .

هذا فضلاً عن أن هذا الأسلوب قد صيغ في صورة تشبيهية حُذف منها الوجه والأداة ، فقد شبهت أحوال الحياة الدنيا باللعب واللهو ، في عدم ترتب الفائدة ، ثم إن هذه الجملة قد فصلت عن النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد/ ٣٥] ، لأنها تعليل لهذا النهي ، أي لا تضعفوا وتجبنوا في

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٦ ص ٦٤ .

قتال المشركين وتدعوهم إلى الصلح والموادعة والركون إلى الحياة الدنيا لأنها لعب ولهو فلا ينبغي أن تمنعكم من طلب الآخرة بالجهاد ، وقد ذكر الرازي أن اللعب هو« ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل ، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشتغله عن غيره ، ولم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ، ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير، ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام[1]» .

ثم إنه تعالى بعد أن حذر من الركون الحياة الدنيا ، حث على الإيمان والتقوى وإنفاق المال في سبيل الله فقال : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَلَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴾ ، وهذا« إعادة للوعد والإضافة للتعريف ، أي الأجر الذي وعدكم بقوله ﴿ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [يس/ ١١] ،﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود/ ١١] ، ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران/ ١٧٢] [2]» ، أي أنهم إن آمنوا واتقوا فإن الله سبحانه لا يسألهم أموالهم « أي لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض؛ قاله ابن عُيينة وغيره. وقيل: ﴿ لاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ لنفسه أو لحاجة منه إليها؛ إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم. وقيل: ﴿ لاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ إنما يسألكم أمواله؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها. وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان/ ٧٥] الآية [3]» .

جملة ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ استئناف بياني ؛ لأنها تعليل

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٨ ص ٧٤ .

(٢) التفسير الكبير ج ٢٨ ص ٧٤ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١٦ ص ٢٥٧ .

لمضمون الحكم في قوله جل وعلا : ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ ؛ حيث إنها تثير سؤالا تقديريًا في أنفس المخاطبين عن علة هذا الحكم ، أي :هو لم يسألنا ذلك لأنه إن سألنا لأجهدنا فنبخل به ، فكان الجواب ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ ،أي أنه« ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير[1]» .

يقول أبو حيان :« وقرأ الجمهور: ويخرج أضغانكم جزمًا على جواب الشرط ، والفعل مسند إلى الله ، أو إلى الرسول، أو إلى البخل . وقرأ عبد الوارث ، عن أبي عمرو : ويخرج ، بالرفع على الاستئناف بمعنى : وهو يخرج . وحكاها أبو حاتم ، عن عيسى ؛ وفي اللوامح عن عبد الوارث ، عن أبي عمرو: وتخرج ، بالتاء وفتحها وضم الراء والجيم؛ أضغانكم : بالرفع ، بمعنى : وهو يخرج أو سيخرج أضغانكم ، رفع بفعله. وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وابن سيرين ، وابن مُحَيصِن ، وأيوب بن المتوكل ، واليماني : وتخرج ، بتاء التأنيث مفتوحة ؛ أضغانكم : رفع به ؛ ويعقوب : ونخرج ، بالنون ؛ أضغانكم : رفعًا ، وهي مروية عن عيسى ، إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن ، فالواو عاطفة على مصدر متوهم ، أي يكف بخلكم وإخراج أضغانكم[2]» .

على رأي من يجعل الضمير في ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ مسندًا إلى البخل ، يكون في هذا التعبير تجوزًا في الإسناد علاقته السببية ، وذلك لأن البخل لا يخرج الأضغان على سبيل الحقيقة ، وإنما هو سبب في ذلك ، أي ويخرج الله أضغانكم بسبب بخلكم ، وفي ذلك ما يكشف عن شدة حبهم للمال ، لذا فإنه تعالى لم يسألهم جميع أموالهم وإنما سألهم نزرًا يسيرًا منه

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٨ ص ٧٤ .

(٢) البحر المحيط ج ٩ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨.

وهو ربع العشر .

وقد كررت (هاء) التنبيه في قوله عز من قائل : ﴿ هَـآ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لتأكيد أهمية المعنى الداخلة عليه ، يقول الزمخشري : « ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾ أي أنتم الذين تدعون . أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم ، كأنهم قالوا : وما وصفنا ؟ فقيل: تدعون ﴿ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [1]» .

وحمل المعنى على أن ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ موصول يكون المقصود هو توبيخ المخاطبين وتحقير شأنهم وبيان خطأهم في بخلهم عن الإنفاق في سبيل الله ، وقد أكد عز وجل أن بخل من يبخل عن ذلك مقصور عليه فقال: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، فقد قصر ضرر البخل عن الإنفاق في سبيل الله على نفس الباخل قصر صفة على موصوف قصر قلب « باعتبار لازم بُخله لأن الباخل اعتقد أنه منع من دَعاه إلى الإنفاق ولكن لازم بخله عاد عليه بحرمان نفسه من منافع ذلك الإنفاق، فالقصر مجاز مرسل مركَّب[2]» .

ثم إنه تعالى قد أكد أنه إنما دعا هؤلاء المخاطبين وحثهم على الإنفاق في سبيل الله ليجزيهم بذلك الثواب العظيم ؛ فهم الفقراء إليه وهو الغني عن أموالهم ونفقاتهم فقال: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ تعريف المسند بأل الجنسية في قوله: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ يفيد القصر أي قصر جنس الغنى على الله عز وجل ، وقصر جنس الفقر على المخاطبين ، يقول صاحب التحرير والتنوير :

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ١٣٧ .

« وهو قصر ادعائي فيهما مرتب على دلالة (أل) على معنى كمال الجنس، فإن كمال الغنى لله لا محالة لعمومه ودوامه وإن كان يثبت بعض جنس الغني لغيره . وأما كمال الفقر للناس فبالنسبة إلى غنى الله تعالى وإن كانوا قد يغْنَون في بعض الأحوال لكن ذلك غنًى قليل وغير دائم[1]» .

وقد اختتمت هذه الآيات الكريمة بأن هؤلاء المخاطبين إن أعرضوا عما أمرهم الله به من الإنفاق في سبيله ، وعما نهاهم عنه من البخل عن الإنفاق في ذلك ، فإنه جل وعلا يستبدل بهم قومًا غيرهم يمتثلوا أمره ويعملون بشرعه ، وينفقوا في سبيله ، ولا يبخلوا عن الإنفاق بما أمروا به فقال : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوَاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ .

تنكير لفظ ﴿ قَوْمًا ﴾ يفيد النوعية والتعظيم ، أي نوعًا من الناس أعظم شأنًا وأجل قدرًا ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ في هذا السياق لا تدل على التراخي الزمني ، وإنما تدل على التراخي الرتبي ، أي تدل على أن ما بعدها أعظم رتبة في الإيمان والتقوى مما قبلها .

يقول القرطبي : « روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوَاْ أَمْثَالَكُم ﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا ؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكِب سلمان ثم قال: "هذا وقومه. هذا وقومه " قال: حديث غريب في إسناده مقال. وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمٰن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تَوَلَّينا أستبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال: وكان سلمان جنب رسول الله ﷺ قال: فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه. والذي نفسي

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ١٣٨ .

بيده لو كان الإيمان مَنُوطاً بالثُّرَيَّا لتناوله رجال من فارس"[1]. وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة : هم فارس والروم. قال المحاسبيّ: فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِينًا، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار؛ قاله شريح بن عبيد. وكذا قال ابن عباس: هم الأنصار. وعنه أنهم الملائكة. وعنه هم التابعون. وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس[2]» .

اتقاء الشح سبب الفلاح

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في موضعين :

الأول : جاء في سورة الحشر في سياق يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر/ ٩] .

روى الطبرى في سبب نزول هذه الآية الكريمة قال « حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله : ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُتُوا ﴾ المهاجرون . قال : وتكلم في ذلك يعني أموالَ بني النضير بعضُ من تكلَّم من الأنصار ، فعاتبهم الله عزّ وجلّ في ذلك فقال : ﴿ وَما أفاءَ اللَّهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ

---

(١) سنن الترمذي حديث رقم ٣٣٨٤ . وصحيح ابن حبان حديث رقم ٧٠٠٩ ، ونص هذا الحديث عنده « أخبرنا عمرُ بن محمد الهَمْداني ، حدثنا أبو الطَّاهر ، حدثنا ابنُ وهب ، أخبرني مسلمُ بنُ خالد ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبي هُريرة أن رسولَ الله تلا هذه الآيةَ ﴿ وإنْ تَتَوَلَّوْا يَستَبْدِلْ قَوْماً غيرَكُم ثُمَّ لَا يَكُونُوا أمثالَكُم ﴾ (محمد : ٣٨) قالوا: يا رسولَ الله، مَنْ هؤلاءِ الذينَ إنْ تولَّينا استُبدلوا بِنا، ثُم لا يكونوا أمثالَنا، فضَرَبَ على فَخِذِ سَلْمانَ الفارسيِّ، ثُمَّ قالَ: «هذا وقومُهُ لو كانَ الدينُ عندَ الثُّرَيَّا، لتَنَاولَهُ رِجالٌ مِنْ فارسٍ».

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٦ ص ٢٥٨ .

خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر/ ٦] قال : قال ﷺ لهم: " إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ تَرَكُوا الأَمْوَالَ والأولاد وَخَرَجُوا إِلَيْكُمْ " فقالوا : أموالنا بينهم قطائع ، فقال رسول الله ﷺ: " أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ " قالوا : وما ذلك يا رسول الله ؟ قال : " هُمْ قَوْمٌ لا يَعْرِفُونَ العَمَلَ فَتَكْفُونَهُمْ وَتُقَاسِمُونَهُمْ الثَّمَرَ " ، فقالوا : نعم يا رسول الله ..... ، حدثنا أبو كُرَيب ، قال: ثنا ابن فضيل ، عن أبيه ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ ليضيفه ، فلم يكن عنده ما يضيفه ، فقال : " ألا رجلٌ يضيفُ هذا رَحِمَهُ اللَّهُ؟ " فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة ،فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته:أكرمي ضيفَ رسول الله ﷺ ،نوّمي الصبية وأطفئي المصباح وأريه بأنك تأكلين معه واتركيه لضيف رسول الله ﷺ ففعلت فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] » .

هذا وقد اختلف العلماء في موقع هذه الآية الكريمة ، هل هي معطوفة على ما قبلها أم مقطوعة عنه ؟ فقد ذكر الزمخشري أن قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ﴾ معطوف على المهاجرين ، وذكر القرطبي أن هذا ابتداء كلام في مدح الأنصار ، وقد ردَّ رأي من قال أنها معطوفة على ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ... ﴾[2] [الحشر/ ٨] ، ورجح أبو حيان الرأي الأول حيث يقول : « والظاهر أن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ معطوف على المهاجرين ، وهم الأنصار ، فيكون قد وقع بينهم الاشتراك فيما يقسم من الأموال . وقيل: هو مستأنف مرفوع بالابتداء ، والخبر ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ أثنى الله تعالى

---

(١) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٨ ص ٤٢ ، ٤٣ . و الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ٢١ ، ٢٢ .

بهذه الخصال الجليلة ، كما أثنى على المهاجرين بقوله :﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً﴾الخ[1]».

وقد ذهب إلى ذلك أيضًا صاحب نظم الدرر حيث يقول:« ولما مدح المهاجرين وأعطاهم فطابت نفوس الأنصار بذلك وكانوا في كل حال معه ﷺ كالميت بين يدي الغاسل ، مهما شاء فعل ، ومهما أراد منهم صار إليه ووصل ، أتبعه مدحهم جبرًا لهم وشكرًا لصنيعهم فقال عاطفًا على مجموع القصة : ﴿ والذين تبوؤا ﴾[2]» .

وقد عُرف المسند إليه باسم الموصول في ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم ﴾ للإيماء إلى وجه بناء الخبر بأنه من جنس الخير وهو أن الأنصار يحبون المهاجرين ، والمراد من الدار : المدينة أي مدينة رسول الله ﷺ لأنها دار الهجرة ، أي أن الأنصار رضي الله عنهم قد نزلوا المدينة واتخذوها منازل لهم « والتعريف في الدار للتنويه كأنها الدار التي تستحق أن تسمى دارًا وهي التي أعدها الله تعالى لهم ليكون تبوّؤهم إياها مدحًا لهم[3]» .

وقد ذكر العلماء في عطف الإيمان على الدار أكثر من وجه ؛ وذلك لأن الإيمان أمر معنوي لا يمكن أن يُتبوأ أي يُتخذ مكانًا للنزول والإقامة فيه ، لذلك ذكروا أنه يصح أن يكون في هذا التعبير استعارة مكنية للمبالغة في تمكنهم منه واستقامتهم عليه ، أو مجاز مرسل عُبر فيه بالملزوم وهو الإيمان وأُريد اللازم وهو التمكن فيه ، أي لزموا الدار والإيمان ، أو أن عامل النصب في ﴿ وَٱلإِيمَانَ ﴾ محذوف والتقدير :

---

(١) البحر المحيط ج ١٠ ص ١٤٢ ، ١٤٣.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٧ ص ٥٢٥ .

(٣) روح المعاني ج ٢٨ ص ٥١ .

تبوّؤوا الدار وأخلصوا الإيمان ، أو أن في الكلام حذفاً للمضاف من الثاني وحذفاً للمضاف إليه من الأول ، والتقدير : تبوؤوا دار الهجرة ودار الإيمان ، أو أن في التعبير مجازًا مرسلاً علاقته الحالّية حيث عُبر بالحالّ في المكان وهو الإيمان وأُريد المحل وهو المدينة ،وقد روى مسلم في صحيحه قال :« حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ وَ أَبُو أُسَامَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ. ح وَحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ : حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: " إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا "[1]» . يقول الزمخشري : « فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوّؤا الإيمان ؟ قلت : معناه تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان ، كقوله :

عَلَفْتُها تِبْنًا وَمَاءً بَارِدَا

أو: وجعلوا الإيمان مستقرًا ومتوطنًا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك . أو: أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه . أو : سُمي المدينة لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان[2]» .

ثم إنه تعالى « لما أخبرهم بالمحبة ورغبهم في إدامتها، عطف على هذا الخبر ما هو من ثمراته فقال [3]» : ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ ، لقد بين عز وجل في الجملة الأولى أن الأنصار يحبون

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٣٣٠ . يأزر : ينضم ويجتمع ويستقر فيها .
(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٩٢ .
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٧ ص ٥٢٦ .

المهاجرين حبًا متجددًا مستمرًا لا يتبرمون منهم ولا يستثقلونهم ، وفي هذه الجملة بين أنهم لا يجدون في أنفسهم تجاههم حزازة ولا حسدًا ولا غيظًا مما أعطى رسول الله ﷺ المهاجرين من الفيء الذي أفاء الله عليه من بني النضير ، ونفي الحزازة والحسد والغيظ عن الأنصار مما أُوتي المهاجرون من الفيء ، يستلزم حبهم لهم ، وإذا كان الأمر كذلك فيكون بين هاتين الجملتين كمال اتصال حيث نُزلت الثانية من الأولى منزلة التوكيد المعنوي من متبوعه ، فالجملة الثانية تقرر مضمون الجملة الأولى وهو حب الأنصار للمهاجرين ، وإذا كان الأمر كذلك فما سر ذكر هذه الواو في جملة ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾؟.

أقول : لعل السر في ذلك هو التنبيه على علو شأن هذا الحب بأنه حب خالص لوجه الله تعالى ، وأن الحب المثبت بالجملة الثانية أعلا شأنًا من الحب المثبت بالجملة الأولى ؛ للمبالغة في طريق إثباته وهو الكناية ، حيث نُفى عن الأنصار أنهم يجدون في نفوسهم تجاه المهاجرين شيئًا من الحزازة والحسد والغيظ مما أُعطوا من الفيء ، وأريد ما يستلزم ذلك من حبهم لهم ، وقد أثبت عز وجل في صدر الآية تمكنهم من الإيمان ، وقد روى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثَنا محمدُ بنُ المُثَنَّى قال : حدثنا عبدُ الوهَّابِ الثَّقَفِيُّ قال : حدَّثَنا أيوبُ عنْ أبي قِلابَةَ عنْ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: " ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان : أَنْ يَكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما ، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله ، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار"[1]» .

ثم إنه قد عُبر في هذه الجملة بالمحل وهو الصدور وأُريد الحالّ فيها وهي القلوب على سبيل المجاز المرسل لعلاقته المحلية .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ١٦ . و صحيح مسلم حديث رقم ١٢٨ .

وجملة ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أي أن الأنصار يقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة ، وقد روى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ بن كثير حدَّثَنا أبو أُسامَةَ حدثنا فُضَيْلُ بن غَزوان حدَّثنا أبو حازمٍ الأشجعيُّ عن أبي هريرة رضيَ الله عنه قال: " أتى رجلٌ رسولَ ﷺ فقال : يا رسولَ الله، أصابني الجَهدُ . فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئًا، فقال رسولُ الله ﷺ : ألا رجلٌ يُضيفُهُ الليلة يرحمُهُ الله ؟ فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأتِهِ : ضيفُ رسول الله ﷺ لا تَدَّخريه شيئًا. فقالت: واللَّهِ ما عندي إلاّ قُوتُ الصِّبْيَة. قال: فإذا أراد الصِّبية العَشاءَ فَنَوِّميهم ، وتعالَيْ فأطفئي السِّراجَ ونَطْوي بُطونَنا الليلةَ . ففَعلَتْ . ثم غدا الرجلُ على رسولِ الله ﷺ فقال: لقد عَجِبَ اللَّهُ عزَّ وجل ــ أو ضَحِكَ ــ من فلانٍ وفلانَةَ . فأنزلَ اللَّهُ عز وجل ﴿ ويُؤْثِرونَ على أنفُسِهم ولو كان بهم خَصَاصة﴾[1]» .

على هذا الوجه يكون إيثار الأنصار لغيرهم على أنفسهم إيثارًا عامًا وليس خاصًا بالمهاجرين، وهذا أولى لأنه أعم في مدحهم بذلك

وروى الحاكم في مستدركه قال : « حدّثنا علي بن حمشاذ العدل ، ثنا محمد بن المغيرة السكري بهمدان، ثنا القاسم بن الحكم العرني، ثنا عبيد الله بن الوليد ، عن محارب بن دثار، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله رأس شاة ، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منا ، قال : فبعث إليه ، فلم يزل يبعث به واحدًا إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول ، فنزلت : ﴿ وَيُؤْثِرونَ

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٦٩ . و صحيح مسلم حديث رقم حديث رقم ٥٣١٥ .

على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصة﴾ ، إلى آخر الآية .

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1]» .

وجملة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «تذييل والواو اعتراضية ، فإن التذييل من قبيل الاعتراض في آخر الكلام على الرأي الصحيح . وتذييل الكلام بذكر فضل من يوقون شح أنفسهم بعد قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يشير إلى أن إيثارهم على أنفسهم حتى في حالة الخصاصة هو سلامة من شح الأنفس فكأنه قيل لسلامتهم من شح الأنفس ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]» .

وذكر ابن عطية أن « " شح النفس " هو كثرة منعها وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأمل هذا جماع شح النفس وهو داعية كل خلق سوء ، وقد قال رسول الله ﷺ : "من أدى الزكاة المفروضة وقرى الضيف وأعطى في النائبة فقد برئ من الشح "[3] ، واختلف الناس بعد هذا الذي قلنا ، فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا وعلى هذا التأويل ، كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف ويقول : اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك ، فقيل له في ذلك فقال إذا وقيته لم أفعل سوءًا.

قال القاضي أبو محمد : " شح النفس " فقر لا يذهبه غنى المال بل يزيده وينصب به ، وقال ابن زيد وابن جبير وجماعة : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برئ من شح النفس.

---

(١) المستدرك . للحاكم النسابوري . محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري ، نشر دار الكتب العلمية . حديث رقم ٣٨٤٦ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٩٤ .

(٣) نصه في جامع الأحاديث والمراسيل : قالَ النَّبِيُّ : « بَرِيءَ مِنَ الشُّح مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ ، وَقَرَىٰ الضَّيْفِ ، وَأَعْطَىٰ فِي النَّائِبَةِ » (هناد ع طب) عن خالد بن زيد بن حارثة رضيَ اللَّهُ عنهُ . حديث رقم ٩٩١٤

وقال ابن مسعود رحمه الله " شح النفس ": هو أكل مال الغير بالباطل ، وأما منع الإنسان ماله فهو بخل وهو قبيح ، ولكنه ليس بالشح[1]» .

وقد فرق الزمخشرى بين الشح والبخل حيث قال : « الشح بالضم والكسر، وقد قرىء بهما : اللؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال :

يُمَارِسُ نَفْسًا بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاَ

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها.وأما البخل فهو المنع نفسه[2]».

وقد بُني الفعل ﴿ يُوقَ ﴾ للمجهول لأنه لما كان «علاج الرذائل صعبًا جدًا ، لا يطيقه الإنسان إلا بمعونة من الله شديدة ، بنى للمفعول قوله: ﴿ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ أي يحصل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار إليها بالنفس ، وقاية تحول بينه وبينها ، فلا يكون مانعًا لما عنده ، حريصًا على ما عند غيره حسدًا[3]» ، وقد « أفرد أولاً ثم جمع رعاية للفظ مَن ومعناها، وإيماء إلى قلتهم في الواقع عددًا وكثرتهم معنى :

فالناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرعنا»[4]

وقد أشار جل وعلا باسم الإشارة الدال على البعيد في قوله : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ للدلالة على تعظيم شأن الأنصار رضي الله عنهم وعلو منزلة وسمو مكانتهم ، وأنهم جديرون من أجل تلك الصفات التي وُصفوا بها بما يرد بعد اسم الإشارة وهو الفلاح الكامل ، وقد صيغت هذه الجملة في أسلوب قصر بتعريف الطرفين قصر صفة على موصوف قصرًا مجازيًا للمبالغة في تأكيد فلاحهم ، وأن غيره من الفلاح إذا ما قسي

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٥ ص ٤٧١ .
(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٩٣ .
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٧ ص ٥٢٦ .
(٤) حاشية الشهاب ج٩ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

به لا يُعد شيئًا ، وقد زاد ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ ذلك تأكيدًا .

هذا وقد ذهب صاحب التحرير والتنوير إلى أن الطريق المفيد للقصر في هذه الجملة هو ضمير الفصل وليس تعريف الطرفين ، يقول : « وصيغة القصر المؤداة بضمير الفصل للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس حتى كأن جنس المفلح مقصور على ذلك المُوقَى[1]».

أقول : إن ما ذهب إليه العلامة الطاهر بن عاشور هنا من أن المفيد للقصر في هذه الجملة هو ضمير الفصل ، لا يؤيده السياق والمقام ، لأن المقصود هنا كما ذكرت هو المبالغة في توكيد فلاح الأنصار رضي الله تعالى عنهم ، وقد تضافر على ذلك أسلوب القصر المستفاد من تعريف الطرفين ، وضمير الفصل .

الموضع الثاني : ورد في سورة التغابن في سياق يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن / ١٤ :١٦] .

جملة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ هي نفسها التي وردت في الموضع السابق الوارد في سورة الحشر في سياق يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر/ ٩] ، وهي تفيد من حيث المعنى نفس ما أفادته في سورة الحشر ، لكن السياق في سورة الحشر يتحدث عن الأنصار رضي الله عنهم ، بأنهم نزلوا المدينة

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٩٥ .

وأقاموا بها ، وتمكنوا من الإيمان ، وأنهم يحبون المهاجرين ... ، ويؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم فاقة ، ثم يُختتم هذا السياق بقوله جل وعلا : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وهنا في سورة التغابن ، يتحدث السياق عن تحذير المؤمنين من أزواجهم وأولادهم من أن يثبطوهم من الإسلام والهجرة ، لأن منهم من هو عدو لهم ، أو كالعدو في التثبيط عن طاعة الله تعالى ، والتحذير من الأموال والأولاد لأنهما بلاء واختبار ، وأن الله عنده ثواب عظيم لهم إذا خالفوا أولادهم وأزواجهم في طاعة الله ، ثم تتحدث الآيات عن أمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وبالسمع ، والطاعة ، والإنفاق ، ثم يُختتم هذا السياق بقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وبالنظر في هذا السياق نجد أن جملة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ قد افتتحت بالنداء لتنبيه المؤمنين إلى هذا الأمر الجلل ليأخذوا حذرهم منه ، وقد أُكد بـ ﴿ إِنَّ ﴾ للاهتمام به، فضلاً عن أن« تقديم خبر﴿ إِنَّ ﴾على اسمها للاهتمام بهذا الخبر ولما فيه من تشويق إلى الاسم ليتمكن مضمون هذا الخبر في الذهن أتم تمكن لما فيه من الغرابة والأهمية[1]» .

يقول الطبري « حدثنا أبو كُرَيب قال: ثنا يحيى بن آدم وعبيد الله ابن موسى ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : سأله رجل عن هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا رسول الله

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٢٨٤ .

ﷺ فلما أتوا رسول الله ﷺ ، فرأوا الناس قد فقهوا في الدين ، هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله جلَ ثناؤه﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ... الآية [1]» .

وأُكدت جملة ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بأسلوب القصر لتأكيد أن الأموال والأولاد بلاء واختبار ، وقد عُبر بـ ﴿ إِنَّمَآ ﴾ للدلالة على أن هذه الفتنة من الأمور التي يعلمها المخاطب ولا يجهلها ، روى الإمام أحمد في مسنده قال : « حدّثنا عبد الله حدّثني أبي حدثنا زيد بن حباب حدّثني حسين بن واقد حدّثني عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبي يقول : " كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال: صدق الله ورسوله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما[2]» .

والقصر المستفاد من هذه الجملة قصر موصوف على صفة قصرًا مجازيًا ، المغزى منه المبالغة في بيان عظم هذه الفتنة ، وأن غيرها من الفتن إذا ما قِيس بها لا تُعد شيئًا ، وتنكير لفظ ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ يفيد النوعية والتعظيم ، وقد قُدمت الأموال على الأولاد لبيان أن الفتنة فيها أعظم .

ثم إنه تعالى بعد أن حذر من هذه الفتن ، بين أن من آثر محبة الله تعالى على محبة الأموال والأولاد والأزواج وأدى حق الله في ماله ، له ثواب عظيم وهو الجنة فقال:﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ، يقول الرازي :«أخبر

---

(١) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٨ ص ١٢٤ وما بعدها .

(٢) مسند الإمام أحمد . حديث رقم ٢٢٦١٣ . وسنن الترمذي . حديث رقم ٣٩٣٦ . وسنن النسائي الصغرى . لأحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار،أبو عبد الرحمن النسائي . طبع دار الفكر . حديث رقم ١٥٨٦.

أن عنده أجرًا عظيمًا ليتحملوا المؤونة العظيمة ، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم[1]».

ثم يأتي عقب ذلك أمر الله تعالى للمؤمنين بالتقوى والسمع والطاعة والإنفاق ، وأن من يُوق شح نفسه فهو الملح ، يقول جل وعلا : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وهكذا تجد السياق يقتضي الإشارة إلى المؤمنين الذين يتقون الله ، ويسمعون مواعظه ، ويطيعون أوامره ، وينفقون فيما أمرهم بالإنفاق فيه ، باسم الإشارة الدال على البعيد لتعظيم شأنهم وعلو منزلته ، وأنهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من صفات وهو الفلاح ، وقد بولغ في تأكيد هذا الوصف العظيم ، بالقصر وضمير الفصل ، حيث قُصر الفلاح عليهم ونُفي عن غيرهم .

الطريق المفيد للقصر في هذه الجملة ـ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ـ هو تعريف الطرفين كالموضع السابق ، وإذا كان صاحب التحرير والتنوير قد ذكر أن الطريق المفيد للقصر في الموضع السابق هو ضمير الفصل ، فإنه قد ذكر في هذا الموضع أن المفيد للقصر هو التعريف ، ونحن نوافقه على ذلك هنا ، ونخالفه على ما ذهب إليه هناك ![2]، يقول : « ولما كان ذلك فلاحاً عظيماً جيء في جانبه بصيغة الحصر بطريقة تعريف المسند ، وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وُقُوا شحّ أنفسهم ، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقق وصف المفلحين الذين وقُوا شحّ أنفسهم نزل الآن

---

(١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٧ .

(٢) ينظر ص ١٥٠ ، ١٥١ من هذا البحث .

فلاح غيرهم بمنزلة العدم[1]» .

اقتصاد المؤمنين في العيش والإنفاق

لقد أُمر المؤمنون بالاقتصاد في العيش والإنفاق في موضعين :

الأول : جاء في سورة الإسراء في سياق يقول : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء/ ٢٦ :٣٠] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الإحسان إلى القرابة ، وصلة الأرحام ، والتصدق على المسكين وابن السبيل ، وعدم الإسراف في الإنفاق في غير حق ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ « تأديب عجيب وقول لطيف بديع ؛ أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمهم. وإنما يجوز أن تُعرض عنهم عند عجزٍ يَعْرِض وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال فقُلْ لهم قولاً ميسوراً[2]» ، وقد أُمر ﷺ بالإحسان إليهم في القول اللين اللطيف والدعاء لهم في سعة الرزق .

ثم إنه تعالى لما أمر رسول الله ﷺ في الآيات الثلاث الأولى علمه أدب الإنفاق كما يقول الرازي في قوله جل وعلا : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٢٨٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٢٤٨ .

جملة ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ حيث إن المتحدَّث عنه في الجملتين في الجملتين واحد ، والأولى فيها نهي عن التبذير في الإنفاق ، وهذه فيها نهي عن البخل في الإنفاق فبينهما تقابل في المعنى فضلاً عن أن اتفاقهما في الإنشائية ؛ لذا فقد عُطفت عليها لما بينهما من التوسط بين الكمالين .

وقد ذكر العلماء أن الخطاب وإن كان موجهًا في ذلك لرسول الله ﷺ فالمقصود أمته .

المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ قائم على التمثيل ، فقد شبه حال بخل من امتنع عن الإنفاق في الحقوق التي أوجبها الله تعالى في أموال أصحاب الأموال ، بحال من غُلت يده إلى عنقه ــ أي شُدت يده إلى عنقه ــ فامتنع من التصرف بها ، ثم حذفت صورة المشبه واستعير لها صورة المشبه به على سبيل الاستعارة التمثيلية .

كذلك شُبه حال المسرف الذي يُذهب كل ماله ، بحال من يبسط يده بالعطاء كل البسط ، ثم حذفت صورة المشبه واستعير لها صورة المشبه به، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وفي ذلك من المبالغة في النهي عن الإسراف في البخل والإسراف ما ترى ؛ لأن كلاً منهما يُلام على سوء تصرفه .

يقول الطبري : « وهذا مثلٌ ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال ، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه ، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء .

وإنما معنى الكلام : ولا تمسك يا محمد يدك بخلاً عن النفقة في حقوق الله ، فلا تنفق فيها شيئًا إمساك المغلولة يده إلى عنقه الذي لا

يستطيع بسطها ، ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ يقول : ولا تبسطها بالعطية كلّ البسط ، فتَبقى لا شيء عندك ، ولا تجد إذا سئلت شيئًا تعطيه سائلك[1]» .

هاتان الاستعارتان التمثيليتان قد استعير فيهما المعنى الحسي وهو غل اليد وبسطها ، للمعنى العقلي وهو البخل والإسراف ، وفي ذلك من التأثير في النفوس ما فيه ؛ لأن تصوير المعنى العقلي في صورة حسية فيه تحريك للنفس ، وتمكين للمعنى ؛ لما فيه من إيناس النفس لردها مما يُدرك بالعقل إلى ما يُدرك بالحس ، يقول أبو حيان : « وهذه استعارة استعير فيها المحسوس للمعقول ، وذلك أن البخل معنى قائم بالإنسان يمنعه من التصرف في ماله فاستعير له الغل الذي هو ضم اليد إلى العنق فامتنع من تصرف يده وإجالتها حيث تريد، وذكر اليد لأن بها الأخذ والإعطاء، واستعير بسط اليد لإذهاب المال وذلك أن قبض اليد يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها ، وطابق في الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى لأن جعل اليد مغلولة هو قبضها ، وغلها أبلغ في القبض[2]».

وقد روى البخاري في صحيحه قال « حدّثنا موسى بنُ إسماعيلَ حدَّثنا وُهَيبٌ حدَّثَنا ابنُ طاوُسٍ عن أبيهِ عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: « مَثَلُ البخيلِ والمتصدّقِ مَثَلُ رجُلَينِ عليهما جُبَّتَانِ من حديدٍ قد اضطَرَّتْ أيدَيهما إلى تَراقيهما، فكلَّما همَّ المتصدِّق بصدَقته اتسعَتْ عليه حتى تُعَفِّيَ أثَره، وكلما همَّ البخيلُ بالصدَقةِ انقَبضَتْ كلُّ حَلْقةٍ إلى صاحبتِها وتقلَّصَتْ عليه وانضمَّتْ يَداهُ إلى تراقيهِ » . فَسمِعَ النبي ﷺ يقول :

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٥ ص ٧٦ .

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ٤٢ .

« فيجتهدُ أن يوَسِّعَها فلا تَتَسعِ [1]» .

النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ يُثِير سؤالاً تقديريًا عن علته ، أي كأن من يوجه له الخطاب قد سأل فقال : لماذا تنهاني عن غل اليد وبسطها ؟ فكان الجواب ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ، أي لكيلا تمتنع عن النفقة في حقوق الله ولا تفرط في الإنفاق ، فتبقى لا شيء عندك ، ولا تجد إذا سألك سائل أن تُعطيه شيئًا ، فيلومك إن لم تُعطه ، وتلومك نفسك على ما فعلت من إذهاب كل المال وإنفاقه ، وعلى ذلك يكون المقصود كما يقول القفال « تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته ، لأن ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الإنسان ويبلغه إلى آخر الشهر أو السنة ، كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه إلى آخر المنزل فإذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزًا متحيرًا فكذلك إذا أنفق الإنسان مقدار ما يحتاج إليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزًا متحيرًا ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين إلى إنفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه[2]» .

يقول القرطبي : « وهذا كله خطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبيّ ﷺ لما كان سيّدَهم وواسطتهم إلى ربّهم عبّر

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٢٨٥٠ . وفي رواية أخرى يقول « حدّثنا عبدُ الله بن محمدٍ حدّثنا أبو عامرٍ حدّثنا إبراهيمُ بن نافع عن الحسن عن طاوُسٍ عن أبي هريرةَ قال: «ضربَ رسولُ الله ﷺ مَثَلَ البخيل والمتصدّق كمثل رجُلين عليهما جُبَّتان من حديد قد اضطرَّت أيديَهما إلى ثُديِّهما وتراقيهما، فجعلَ المتصدقُ كلما تَصدَّق بصدقةٍ انبسَطَت عنه حتى تغشى أناملَه وتَعفُوَ أثرَهُ، وجَعلَ البخيلُ كلما هم بصدقةٍ قلَصَت وأخَذَت كلُّ حلْقة بمكانها. قال أبو هريرةَ: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ بإصبعَيهِ هكذا في جَيبِهِ ، فلو رأيتَهُ يُوسعُها ولا تَتوَسع » . (صحيح البخاري حديث رقم ٥٦٦٤) .

(٢) التفسير الكبير ج ٢٠ ص ١٩٥ .

به عنهم على عادة العرب في ذلك. وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يشدّ الحجر على بطنه من الجوع. وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يعنّفهم النبيّ ﷺ ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم. وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراج ما حَوَتْه يده من المال مَن خِيف عليه الحسرة على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم. وقيل: إن هذا الخطاب للنبيّ ﷺ في خاصّة نفسه، علّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد. قال جابر وابن مسعود: جاء غلام إلى النبيّ ﷺ فقال: إن أمّي تسألك كذا وكذا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقول لك اكْسُنِي قميصك؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عُرياناً. وفي رواية جابر: فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول الله ﷺ يخرج، واشتغلت القلوب، فدخل بعضهم فإذا هو عار؛ فنزلت هذه الآية. وكل هذا في إنفاق الخير. وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام[1]» .

ثم يقول « نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطرأ أوّلاً من سؤال المؤمنين؛ لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلا يضيّع المنفِق عياله . ونحوُه من كلام الحكمة : ما رأيت قطُّ سَرَفًا إلا ومعه حق مضيَّع. وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبيَّن حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس[2]» .

ثم إنه تعالى قد ختم هذه الآيات الكريمة ببيان علة بسطه الرزق لمن يشاء من عباده ، وعلة تضييقه على آخرين فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٢٥١ .

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ .

يقول الطبري : « حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد ، ثم أخبرنا تبارك وتعالى كيف يصنع ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ قال : يقدر: يقلّ ، وكل شيء في القرآن يَقْدِر كذلك ثم أخبر عباده أنه لا يرزؤه ولا يؤوده أن لو بسط عليهم ، ولكن نظرًا لهم منه ، فقال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى/ ٢٧] قال: والعرب إذا كان الخصب وبُسِط عليهم أَشِروا ، وقتل بعضهم بعضًا، وجاء الفساد ، فإذا كان السنة شُغِلوا عن ذلك[1]» .

الموضع الثاني : جاء في سورة الفرقان في مقام الحديث عن صفات عباد الرحمن يقول تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا * وَٱلَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰمًا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا * وَٱلَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِأَيَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٥ ص ٧٨ .

بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان / ٦٣ : ٧٧] .

بعد أن بين الله عز وجل أن من سمات المؤمنين الذين هم عباد الرحمن المشي على الأرض بالحلم والسكينة والوقار والطاعة والعفاف والتواضع ، وعدم الاستكبار والتجبر أو السعي بالفساد ومعصية الله ، وعدم الجهل على من يجهل عليهم ، وأنهم يقومون ليلهم بالصلاة لربهم ، وأنهم يدعونه تعالى بأن يصرف عنهم عذاب جهنم الذي لا يفارق مَنْ يُعذب به من الكفار ، وبئس قرارهم هذا القرار ، عطف تعالى على هذه الصفات قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ .

المُتحدَث عنهم في هذه الأخبار واحد هم عباد الرحمن ، وهذه الأخبار كلها متفقة في الخبرية ، فضلاً عن أن بين المعنى الوارد في هذه الآية الكريمة وبين المعاني الواردة في الآيات السابقة تماثلاً ؛ لأن هذه الصفات وهي الحلم والسكينة ... ، وعدم الجهل على من يجهل عليهم ، وقيام الليل ، والدعاء بأن يصرف الله تعالى عنه عذاب جهنم ، والقصد في الإنفاق ، وعدم الإسراف والإقتار ، كلها صفات حسنة تمثل شخصية العبد المؤمن الذي يكون أهلاً لأن يكون عبدًا للرحمن ، لذا قد عُطفت هذه الآية الكريمة على الآيات السابقة لما بينها من التوسط بين الكمالين .

وقد عُبر بـ (إذا) في قوله تعالى : ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ لتحقق وقو ع الشرط ، أي أن أمر اقتصادهم في الإنفاق وعدم الإسراف والإقتار أمر محقق .

وقد ذكر ابن عطية أن المفسرين قد اختلفوا في بيان معنى

الإسراف والإقتار في هذه الآية حيث يقول : « اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أسرف ، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قل إنفاقه ، وأن المقتر هو الذي يمنع حقًا عليه ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد . وقال عون بن عبد الله بن عتبة : الإسراف أن تنفق مال غيرك . ونحو هذه الأقوال التي هي غير مرتبط بلفظ الآية ، وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر ، والوجه أن يقال : إن النفقة في المعصيةِ أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره ، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات وفي المباحات ، فأدب الشرع فيها أن لا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًا آخر أو عيالاً ونحو هذا ، وأن لا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرِط في الشح ، والحسن في ذلك هو القَوام أي العدل ، والقَوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله ،لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدِّين،ومنع غيره من ذلك.ونعم ما قال إبراهيم النَّخَعيّ : هو الذي لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف. وقال يزيد بن حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال ، ولا يأكلون طعامًا للذة . وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟ فقال له عمر: الحسنة بين السيئتين ، ثم تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفًا ألا يشتهي شيئًا إلا اشتراه فأكله[1]» .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١٢ ص ٤٠ ، ٤١ .

وقال القرطبي : « قال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القَوام . وقال ابن عباس : من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهمًا في غير حقه فهو سرف ، ومن منع من حق عليه فقد قتر. وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما[1]» .

يقول أبو حيان : «قرأ الحسن وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم : يقترون بفتح الياء وضم التاء ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ونافع ، وابن عامر بضم الياء وكسر التاء مشددة وكلها لغات في التضييق. وأنكر أبو حاتم لغة أقتر رباعياً هنا. وقال أقتر إذا افتقر. ومنه ﴿ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ [البقرة / ٢٣٦] . وغاب عنه ما حكاه الأصمعي وغيره: من اقتر بمعنى ضيق، والقوام الاعتدال بين الحالتين. وقرأ حسان بن عبد الرحمن {قَواماً } بالكسر. فقيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: بالكسر ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص. وقيل: ﴿ قَوَامًا ﴾ بالكسر مبلغاً وسداداً وملاك حال[2]» .

هذا ، وقد رد الزمخشري رأي الفراء الذي ذهب فيه إلى أن اسم كان ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ وخبرها ﴿ قَوَامًا ﴾ يقول : « والمنصوبان أعني ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾: جائز أن يكونا خبرين معًا ، وأن يجعل بين ذلك لغوًا، وقوامًا مستقرًا . وأن يكون الظرف خبرًا، وقوامًا حالاً مؤكدة . وأجاز الفراء أن يكون ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ اسم كان ، على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) البحر المحيط ج ٨ ص ١٢٩ .

كقوله :

لَمْ يَمْنَعِ الشَّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ

وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكن المعنى ليس بقوي: لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة[1]» .

ردُّ الزمخشري لما ذهب إليه الفراء يُفهم منه أنه يُرجح أن يكون ﴿ قَوَامًا ﴾ حالاً مؤكدة و وهذا هو الرأي ؛ وذلك لأن الحال هو مناط الفائدة ، ومناط الفائدة في هذه الآية الكريمة هو النص على أن من صفات عباد الرحمن هو القصد في الإنفاق .

يقول الدكتور محمد أبو موسى في مقام حديثه عن بيان تشابك الجمل في هذه الآيات الكريمة ، يقول بعد أن ذكر هذه الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ : « خبر رابع ، وهو اسم موصول وصلته ، والصلة جملة شرطية لها فعل شرط هو قوله : ﴿ أَنفَقُواْ ﴾ ولها ثلاث جمل هي جواب الشرط ،وتأمل ﴿ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ تجد هذه الثلاث شرحًا وتحليلاً لحقيقة واحدة تناولتها من جهات : نفي الإسراف ، ونفي التقتير ، وكان ذلك يمكن أن يكون كافيًا لأنه دال على الوسط دلالة لزوم ، ولكن الآية نصت على الوسط لأنه الجوهر المطلوب وله مزيد عناية ، والمقصود تحليل حال من أحوال الإنسان الصالح وتدبير معاشه وقيامه بسد خلته وخلة أهله ، وقد جعل الله المال للناس قيامًا فكان تقرير هذا الأصل محتاجًا إلى هذا التفصيل بل محتاجًا إلى أن يسلك الكلام هذا المسلك فيذكر الطرفين المتطرفين بين الإفراط والتفريط ويدل على أن ذا الحكمة لا يسلك

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٨٥ .

أحدهما ، ثم يدل على الطريق الأقوم ويغري به لأنه طريق الطبقة العالية من أهل الحكمة وهم عباد الرحمن[1]» .

جزاء مانعي الزكاة من المؤمنين

لقد ورد التعبير عن هذا المعنى في القرآن الكريم في موضعين:

الأول : ورد في سورة آل عمران في سياق يقول : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران ١٨٠] .

قد اختلف العلماء في بيان المراد من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ، فذكر الطبري أن السُّدِّي نص على أن المراد بذلك هم الذين لا يؤدون الزكاة ، وأن ابن عباس ذكر أن المراد هم أهل الكتاب الذين كتموا نبوة محمد ﷺ ، ويأمرون الناس بكتان ذلك ، وقد رجح الطبري الرأي القائل بأن المراد من ذلك هم مانعو الزكاة، يقول بعد أن عرض آراء العلماء في ذلك : « وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية التأويل الذي قلناه في ذلك في مبدإ قوله : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ ﴾ للأخبار التي ذكرنا في ذلك عن رسول الله ﷺ ، ولا أحد أعلم بما عنى الله تبارك وتعالى بتنزيله منه عليه الصلاة والسلام[2]» .

وذهب الرازي إلى أن البخل بالمال في الجهاد هو الراجح وأن « تفسير هذا البخل بكتمان دلائل نبوة محمد ﷺ غير بعيد ، وذلك لأن اليهود والنصارى موصوفون بالبخل في القرآن مذمومون به. قال تعالى

---

(١) ينظر دلالات التراكيب . للدكتور محمد محمد أبو موسى . طبعة دار التضامن . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ م ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٤ ص ١٩٣ .

في صفتهم: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً ﴾ [النساء/ ٥٣] وقال أيضا فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ [النساء/ ٣٧] وأيضا ذكر عقيب هذه الآية قوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ [آل عمران/١٨١] وذلك من أقوال اليهود، ولا يبعد أيضاً أن تكون الآية عامة في البخل بالعلم، وفي البخل بالمال، ويكون الوعيد حاصلا عليهما معا [١]» .

وذكر القرطبي أن جماعة من المتأولين ذهبوا إلى أنها نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله، وأداء الزكاة المفروضة منهم ابن مسعود وابن عباس ، وأبو وائل ، وأبو مالك ، والسدي والشعبي.

ولعل هذا الرأي هو الرأي الراجح لتضافر الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ في ذلك ، فقد روى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثني عبدُ اللَّهِ بن مُنيرٍ سمعَ أبا النَّضرِ حدَّثَنا عبدُ الرحمن هو ابنُ عبدالله بن دِينارٍ عن أبيه عن أبي صالحٍ عن أبي هريرةَ قال: «قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : " مَن آتاهُ الله مالاً فلم يُؤد زكاتَه مُثِّلَ له ماله شُجاعاً أقرَعَ له زَبيبتان يُطوَّقهُ يومَ القيامة ، يأخذُ بلِهْزِمتيهِ ــ يعني بشدقَيهِ ــ يقول: أنا مالكُ ،أنا كَنزُك " ثمَّ تلا هذه الآية ﴿ ولا يَحسِبنَّ الذين يَبخلَون بما آتاهُمُ الله من فضلِهِ﴾[آل عمران/١٨٠] إلى آخرِ الآية[٢]».

وروى الإمام أحمد في مسنده قال : « حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا يحيى بن سعيد عن بهز بن حكيم ، حدَّثني أبي عن جدي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا يأتي رجل مولى له يسأله من فضل عنده

---

(١) التفسير الكبير ج ٩ ص ١١٥ .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٤٤٤٧ .

فيمنعه ، إلاّ دعى له يوم القيامة شجاع يتلمظ فضله الذي منع"[1]» .

وروى البيهقي في سننه الكبرى قال : « أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن و أبو زكريا بن أبي إسحاقَ وغيرُهُمَا قالوا ثنا أبو العباس محمد بن يعقوبَ أنبأ الربيع بن سليمانَ أنبأ الشافعيُّ أنبأ سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ سمع جامعَ بنَ راشدٍ و عبدَ الملكِ بنَ أَعْيَنَ سمعا أبا وائلٍ يخبر عن عبدِ الله بنِ مسعود يقولُ : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: "ما مِنْ رجلٍ لا يُؤَدِّي زكاةَ مالِه ، إلاَّ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القيامةِ شجاعاً أَقْرَعَ يَفِرُّ منهُ وهو يَتْبَعُهُ ، حتَّى يُطَوِّقَهُ في عُنُقِه " ثم قَرَأَ عَلَيْنَا رسولُ الله ﷺ ﴿ سَيُطَوَّقُوْنَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [2]» .

وقد افتتحت هذه الآية الكريمة بالنهي عن حسبان أن يكون البخل هو خيرًا للباخلين فقال جل وعلا : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ ، وقد أكد هذا النهي بنون التوكيد في ﴿ يَحْسَبَنَّ ﴾ وبضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾ لدفع إنكار من ينكر ذلك ، حيث يتوهم الباخلون أنهم ببخلهم يستبقون المال ، فأكد عز وجل خطأهم في ذلك وسوء صنيعهم .

ثم إنه على مَن يجعل ﴿ ٱلَّذِينَ ... ﴾ هي الفاعل يكون المقصود من تعريف المسند إليه باسم الموصول هو تنبيه هؤلاء الباخلين على خطئهم في هذا الحسبان وهو أن يكون البخل خيرًا لهم ؛ لذا فقد نُص على شريته لهم ، فقال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ و«التنصيص على شريته لهم مع إدراكها من نفي خيريته للمبالغة في ذلك [3]» ، وقد نُكر المسند إليه ﴿ شَرٌّ﴾ لإفادة التهويل والتفخيم أي بل هو شر عظيم مهول لهم .

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم ١٩٦٦٩ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي حديث رقم ٧٢٥٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٢ ص ٧٢ .

ثم إنه على هذا الرأي يكون في هذه الجملة إيجاز بالحذف ، حيث حُذف المفعول الأول لـ ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ﴾ ؛ لأن التقدير : ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله بخلهم هو خيرًا لهم ، والقرينة الدالة على هذا الحذف هي قوله تعالى : ﴿ يَبْخَلُونَ ﴾ .

أما على رأي من يجعل فاعل الفعل ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ﴾ محذوفًا فيكون في هذه الجملة إيجاز بحذف المضاف ، حيث يكون التقدير : ولا يحسبن أحد بخل الذين يبخلون هو خيرًا لهم و وكذلك يكون فيها إيجاز بحذف المضاف أيضًا على قراءة حمزة ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ بالتاء على أن يكون الفاعل هو ضمير رسول الله ﷺ .

يقول أبو السعود : « وإيرادُ ما بخِلوا به ، بعنوان إيتاءِ الله تعالى إياه من فضله ، للمبالغة في بيان سوءِ صنيعِهم فإن ذلك من موجبات بَذلِه في سبيله كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد/٧] (١)

وقد فصلت جملة ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ عن جملة ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ لما بينهما ما كمال اتصال ، حيث نزلت الثانية من الأولى منزلة عطف البيان من متبوعه ؛ وذلك لأن الأولى فيها إبهام لنوع هذا الشر ، فجاءت الثانية موضحة ومبينة لنوع هذا الشر ، وهو أنهم سيطوقون يوم القيامة بما بخلوا به ، ويصح أن يكون سر الفصل هنا هو أن يكون بين هاتين الجملتين استئناف بياني، وذلك لأن الجملة الأولى تثير سؤالاً تقديريًا ، أي كأن سائلاً قد سأل : البخل شر لهم ألأنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ؟ فكان الجواب : نعم ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

وقد ذكر العلماء أن السين في ﴿ سَيُطَوَّقُونَ ﴾ هي سين الوعيد .

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٢ ص ٧٢ .

وقد أشرت قبل ذلك في صدر حديثنا عن هذا الموضع إلى الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في بيان المراد من هذه الجملة ، وهو أن من لم يؤد زكاة ماله مثل له ماله شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ، يقول أنا مالك أنا كنزك ، أو أنه يتبعه حتى يطوقه في عنقه ، أو شجاعًا يتلمظ فضل ماله الذي منع .

يقول القرطبي : « وقال ابن عباس أيضاً : إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد ﷺ. وقال ذلك مُجاهد وجماعة من أهل العلم. ومعنى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ ﴾ على هذا التأويل سيحملون عقاب ما بخلوا به ؛ فهو من الطاقة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة/ ١٨٤] وليس من التّطويق. وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: معنى «سَيُطَوَّقون» سيُجعل لهم يوم القيامة طَوْقٌ من النار. وهذا يجري مع التأويل الأوّل أي :قول السدي. وقيل: يُلزَمون أعمالهم كما يلزم الطّوق العنق؛ يقال: طُوِّق فلان عملَه طَوْقَ الحمامة ، أي ألزِم عمله . وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [1] » [الإسراء/ ١٣] .

وقد أشار أبو حيان إلى أن ظاهر المعني من هذه الجملة هو الحمل على المجاز يقول : « والظاهر حمله على المجاز، أي سيلزمون عقابه إلزام الطوق ، وفي المثل لمن جاء بهنة تقلدها طوق الحمامة [2]» .

وهذا الوجه هو ما رجحه الزمخشري قبل أبي حيان حيث إنه قد أشار إليه في صدر بيانه للمعنى المراد من هذه الجملة ، يقول : « ﴿ سَيُطَوَّقُونَ ﴾ تفسير لقوله : ﴿ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم : تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بهنة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٢٩١ ، ٢٩٢.

(٢) البحر المحيط ج ٣ ص ٤٥٢ .

يسب بها ويذم . وقيل : يجعل ما بخل من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة ، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك . وعن النبي ﷺ في مانع الزكاة : " يطوق بشجاع أقرع " وروي " بشجاع أسود " وعن النخعي سيطوقون بطوق من نار[1]» .

ثم إنه تعالى قد بين عقب ذلك انه هو وحده الذي له ميراث السماوات والأرض ، وأن أحدًا من خلقه لا يبقى له شيء مما يملك وهذا أدعى للباخلين بأن ينفقوا ولا يبخلوا ، فقال جل وعلا : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، وقد قُدم المسند ﴿ لِلَّهِ ﴾ على المسند إليه ﴿ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي لقصر ميراث السماوات والأرض على كونه لله تعالى وحده ، وهو قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا ، المغزى منه بيان الواقع ، وفي ذلك زيادة تأكيد لبيان خطأ الباخلين وسوء صنيعهم ؛ لأنهم إذا كانوا لا ينفقون مما جُعلوا مستخلفين فيه ، فإن ذلك سيكون عليهم وبالاً يوم القيامة ، وقد بين القرطبي أن هذا المعنى قائم على التمثيل يقول : « قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوام مُلكه. وأنه في الأبد كهو في الأزل غنيٌّ عن العالمين ، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم ؛ فتبقى الأملاك والأموال لا مُدَّعى فيها. فجرى هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق ، وليس هذا بميراث في الحقيقة ؛ لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئا لم يكن مَلَكَهُ من قبل ، والله سبحانه وتعالى مالكُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما، وكانت السماوات وما فيها، والأرض وما فيها له، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها ؛ فإذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل. ونظير هذه الآية قوله

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٣٦ .

تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [مريم/ ٤٠] الآية . والمعنى في الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن يُنفقوا ولا يَبْخَلُوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا[١]».

وقد ذكر صاحب التحرير والتنوير أن هذه الجملة « تذييل لموعظة البَاخلين وغيرهم... [٢]» .

ثم إنه تعالى قد هدد وتوعد مَن يظن أن البخل خير له بأنه سبحانه خبير بنية هؤلاء الباخلين وضمائرهم محيط بها ، وأنه مجازيهم على ما قدموا فقال : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، ومقتضى ظاهر السياق أن يكون التعبير : ولله ميراث السماوات والأرض وهو بما تعملون خبير ، ولكن قد عُدل عن ذلك إلى إظهار الاسم الجليل ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ ؛ لأن مقام التهديد والوعيد يقتضي هذا الإظهار لتربية المهابة في نفوس الباخلين لعلهم يكفون عن هذا الفعل المشين ، وهذا يتسق مع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء ، لأنه تعالى بعد أن بين حالهم بطريق الغيبة كأنه قد أحضرهم ليرمي في وجوههم بهذا التهديد والوعيد ، وهو أنه خبير بنياتهم وضمائرهم محيط بها ، وأنه مجازيهم على سوء صنيعهم ، لذا فقد ذكر الزمخشري أن قراءة ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على طريقة الالتفات أبلغ من قراءة ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء على الأصل ، يقول : « وقرىء «بِمَا تَعْمَلُونَ » بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات ، وهي أبلغ في الوعيد والياء على الظاهر[٣]» .

هذا ، فضلاً عن أن خَتْمَ هذه الآية الكريمة بهذه الصفة وعلى هذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٢٩٣ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٣٦ .

الوجه من الالتفات يتسق مع التهديد والوعيد في الآية التالية ، ويفتح باب المعنى لها ، وأنه لا يخفى عليه تعالىما قاله اليهود المتمردون في كفرهم ، وأنه جل وعلا قد أعد لهم بما قالوا كفاءه من العذاب ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران/١٨١ :١٨٢] .

الموضع الآخر :جاءفيسورة التوبة في سياق يقول : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة / ٣٤: ٣٥] .

يقول ابن كثير : « والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى وفي الحديث الصحيح " لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة [1]" قالوا : اليهود

---

(١) قال الحاكم في المستدرك حديث رقم : ٨٤٩٨ « حدّثني أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدّثني أبي ، ثنا عبد الرحمٰن بن مهدي ، ثنا عكرمة ابن عمار، عن حميد بن عبد الله الفلسطيني ، حدّثني عبد العزيز ابن أخي حذيفة ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، وليصلين النساء وهن حيض ، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل ، لا تخطئون طريقهم ولا يخطأنكم، حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة فتقول إحداهما : ما بال الصلوات الخمس ، لقد ضلّ من كان قبلنا إنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيْ النَّهَارَ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ لا تصلوا إلا ثلاثًا ، وتقول الأخرى : إيمان المؤمنين بالله كإيمان الملائكة ما فينا كافر ولا منافق حق على الله أن يحشرهما مع الدجال » هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

والنصارى ؟ قال: « فمن » ؟ وفي رواية فارس والروم ، قال : " فمن الناس إلا هؤلاء ؟ " والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم[1]» .

وقد افتتحت جملة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ بالنداء لتنبيه المؤمنين على بيان أهمية هذا المعنى ولفت انتباههم ليحذروا ما وقع فيه أكثر علماء اليهود وعباد النصارى من أخذ أموال الناس بالباطل ، حيث « إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضًا باسم الكنائس والبِيع وغيرِ ذلك ؛ مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله تعالى ، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال ؛ كالذي ذكره سَلْمان الفارسِيّ عن الراهب الذي استخرج كنزه ؛ ذكره ابن إسحاق في السير. وقيل : كانوا يأخذون من غَلاّتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدِّين والقيامِ بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون في الأحكام ؛ كما يفعله اليوم كثير من الولاة والحُكّام . وقوله: ﴿ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ يجمع ذلك كله[2]» .

وقد أُكدت هذه الجملة بـ (إن) و (اللام) لدفع إنكار من ينكر ذلك من الأحبار والرهبان ، يقول صاحب التحرير والتنوير : « وافتتاح الجملة بالنداء واقترَانها بحرفي التأكيد، للاهتمام بمضمونها ورفع احتمال المبالغة فيه لغرابته[3]» .

أقول:ليس هذا الخبر غريبًا، ولكن كثيرًا من الأحبار والرهبان ينكرونه لأنه يكشف عن مساوئهم ، لذا جاء مؤكدًا لدفع هذا الإنكار.

ثم إنه تعالى قد عبر عن (أخذ) كثير من الأحبار والرهبان أموال

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ١٣٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٣) التحرير والتنوير ج ١٠ ص ١٧٤ .

الناس بالباطل (بالأكل) للمبالغة في بيان قبح هذا الفعل وتنفير المؤمنين منه حتى لا يقعوا فيه أو يحوموا حوله ، وعلى ذلك يصح أن يكون في هذا التعبير استعارة تبعية ، أو مجاز مرسل ، حيث عبر بالملزوم وهو الأكل وأراد اللازم وهو الأخذ ، أو عبر بالسبب وهو الأموال وأراد المسبب وهو الأكل ، يقول الزمخشري : « معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ . ألا ترى إلى قولهم : أخذ الطعام وتناوله . وإمّا على أن الأحوال يؤكل بها فهي سبب الأكل . ومنه قوله :

إنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافَا يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إكَافَا

يريد: علفاً يشترى بثمن إكاف . ومعنى أكلهم بالباطل : أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام ، والتخفيف والمسامحة في الشرائع[1]» ، والمقصود من ذلك هو المبالغة في التنفير من هذا الفعل المشين .

ثم إنه تعالى بعد أن بين هذا الفعل القبيح الذي يفعله كثير من الأحبار والرهبان ، عطف عليه قبحًا آخر من قبائحهم وهو منع مَن يريد الدخول في الإسلام ، فقال : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، المقصود من ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ دين الله وهو الإسلام ، وقال السدي «... وأما سبيل الله: فمحمد ﷺ [2]» وعلى ذلك قد استُعير السبيل للدين أو لرسول الله ﷺ؛ للمبالغة في بيان هداية رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام لأن السبيل أي الطريق إذا كان يوصل إلى الغاية المرادة ، فإن رسول الله ﷺ يهدي الناس إلى طريق الرشاد ، وهو الإيمان بالله عز وجل ، على سبيل الاستعارة الأصلية .

هذا ، وقد عُطفت جملة ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ على جملة

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١١٧ .

﴿ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ لأن المتحدث عنه في الجملتين واحد ، فضلاً عن أن بين الجملتين مناسبة من جهة أخرى وهو أن كلاً منهما يتحدث عن قبح فعل كثير من الأحبار والرهبان وسوء صنيعهم ومناصبتهم العداوة للإسلام وأهله ، فبين هاتين الجملتين توسط بين الكمالين .

ثم إنه تعالى بعد أن كشف مساوئ كثير من الأحبار والرهبان من أكل أموال الناس ، والإعراض عن الدين الحق وهو الإسلام وإغراء أتباعهم بذلك ، أو بإنكار نبوة رسول الله ﷺ ، قد عطف على ذلك قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يقول الزمخشري : « يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل ، وكنز الأموال ، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ، ويُقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى ، تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله : سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[1]» .

أقول : على هذا الوجه أي على جَعْلِ الواو عاطفة يكون بين هذه الجملة والتي قبلها توسط بين الكمالين للمناسبة التي ذكرها الزمخشري ، وهذا هو رأي أبو ذر ﷺ ، فقد روى البخاري في صحيحه قال : « حدَّثَنا قُتيبةُ بن سعيدٍ حدَّثَنا جَرير عن حُصينٍ عن زيد بن وَهبٍ قال: « مَررتُ على أبي ذَرٍّ بالرَّبَذَة فقلت: ما أنزَلَك بهذه الأرض؟ قال: كنّا بالشام، فقرأت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلاّ في أهل الكتاب. قال: قلتُ:

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

إنها لَفينا وفيهم [1]» .

ويقول الطبري مبيناً رأي ابن عباس رضي الله عنهما : « حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي، قال ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفضَّةَ ولاَ يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يقول : هم أهل الكتاب ، وقال : هي خاصة وعامة .

يعني بقوله: هي خاصة وعامة هي خاصة من المسلمين فيمن لم يؤدّ زكاة ماله منهم، وعامة في أهل الكتاب لأنهم كفار لا تقبل منهم نفقاتهم إن أنفقوا [2]» .

وذكر السدي أن المراد بها أهل القبلة ، وعلى هذا الرأي تكون الواو للاستئناف ، يقول القرطبي : « اختلفت الصحابة في المراد بهذه الآية؛ فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأَصَمّ؛ لأن قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ﴾ مذكور بعد قوله : ﴿ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ﴾. وقال أبو ذرّ وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال : ويكنِزون ، بغير والذين . فلما قال : « ﴿ وَٱلَّذِينَ﴾ فقد استأنف معنًى آخر يبيِّن أنه عطف جملة على جملة . فالذين يكنزون كلام مستأنف ، وهو رفع على الابتداء . قال السُّدِّي : عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال. وعلى قول الصحابة فيه دليل على أن الكفار عندهم مخاطبون بفروع الشريعة [3]» .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٤٥٤٢ .
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

ثم إن أهل العلم قد اختلفوا أيضًا في بيان معنى الكنز ، فذكر ابن عمر والسدي أن كل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز وإن لم يكن مدفونًا ، وقال آخرون كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز ، أديت من الزكاة أو لم تؤد ، وذكر آخرون أن الكنز هو كل ما فضلمن المال عن حاجة صاحبه إليه [1] .

هذا وقد روى الحاكم في المستدرك قال : « أخبرنا علي بن محمد بن عقبة الشيباني ، ثنا إبراهيم بن إسحاق الزهري، ثنا يحيى بن يعلى بن الحارث المحاربي، ثنا أبي، ثنا غيلان بن جامع ، عن عثمان بن القطان الخزاعي، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ الَّذين يَكْنِزونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقونَها في سَبيلِ الله ﴾ ، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحدنا أن يترك مالاً لولده يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرّج عنكم، قال: فانطلقوا وانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتوا رسول الله فقال عمر: يا نبيّ الله قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال نبيّ الله : " إِنَّ الله لَمْ يَفْرِض الزَّكاةَ إِلاَّ لِيُطيبَ بِها ما بَقِيَ مِنْ أَمْوالِكُمْ، وَإِنَّما فَرَضَ الْمَوارِيثَ في أَمْوالٍ تَبْقى بَعْدَكُمْ " . قال: فكبّر عمر، ثم قال له النبيّ : " أَلا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ ما يَكْنِزُهُ الْمَرْءُ الْمَرْأَة الصَّالِحَة إِذا نَظَرَ إِلَيْها سَرَّتْهُ ، وَإِذا أَمَرَها طاعَتْهُ، وَإِذا غابَ عَنْها حَفِظَتْهُ". هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [2]» .

وقد رجح الطبري رأي ابن عمر يقول : « وأولى الأقوال في ذلك بالصحة: القول الذي ذُكِر عن ابن عمر من أن كلّ مال أديت زكاته فليس

---

(١) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١١٨ وما بعدها .

(٢) المستدرك حديث رقم ٣٣٣٠ . ورقم ١٥٢٠ . وسنن أبي داود حديث رقم ١٦٦٥ . والسنن الكبرى للبيهقي حديث رقم ٧٢٦٦ .

بكنز يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر، وأن كلّ مال لم تؤدّ زكاته فصاحبه معاقب مستحقّ وعيد الله إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قل إذا كان مما يجب فيه الزكاة. وذلك أن الله أوجب في خمس أواق من الورِق على لسان رسوله ربع عشرها، وفي عشرين مثقالاً من الذهب مثل ذلك ربع عشرها. فإذ كان ذلك فرض الله في الذهب والفضة على لسان رسوله، فمعلوم أن الكثير من المال وإن بلغ في الكثرة ألوف ألوف لو كان، وإن أدّيت زكاته من الكنوز التي أوعد الله أهلها عليها العقاب، لم يكن فيه الزكاة التي ذكرنا من ربع العشر... [1]» .

ثم إنه تعالى قد وحد الضمير في قوله : ﴿ وَالَّذين يَكْنِزونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقونَها... ﴾ على الرغم من أنه قد ذُكر شيئان ، وذلك حملاً على المعنى دون اللفظ ، أو أن في الكلام حذفًا للمسند ، أي : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله والذهب كذلك فبشرهم بعذاب أليم ، يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها، وقد ذكر شيئان؟ قلت : ذهابًا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ : لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم ، فهو كقوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ [الحجرات /٩] وقيل : ذهب به إلى الكنوز، وقيل : إلى الأموال . وقيل : معناه ولا ينفقونها والذهب ، كما أن معنى قوله :

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

وقيار كذلك[2]» .

الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قيل هي داخلة على

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠ ص ١٢٠ .
(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٥٩ .

خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط ، وقيل هي الفاء الفصيحة لأنها واقعة في جواب شرط مقدر، أي : إذا كان هذا هو حال كثير من الأحبار والرهبان من أكل أموال الناس بالباطل ، وحال الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يؤدون زكاتها فبشرهم بعذاب أليم .

ثم إنه إذا هذا المقام مقام إنذار وتخويف من هذه المساوئ فإن البشارة في قوله جل وعلا : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ليست مستخدمة في معناها الحقيقي ، والقرينة الدالة على ذلك هي قوله تعالى : ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فالعذاب لا يبشر به ، وإنما ينذر به ، لذا قد استعيرت البشارة بما يسر للإنذار بما يسوء وهو العذاب الأليم ، على سبيل التهكم ، ثم اشتق منها بشر بمعنى أنذر على سبيل الاستعارة العنادية التهكمية .

يقول الرازي : « واعلم أنه تعالى لما ذكر الذين يكنزون الذهب والفضة. قال: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبرهم على سبيل التهكم لأن الذين يكنزون الذهب والفضة إنما يكنزونهما ليتوسلوا بهما إلى تحصيل الفرج يوم الحاجة. فقيل هذا هو الفرج كما يقال تحيتهم ليس إلا الضرب وإكرامهم ليس إلا الشتم، وأيضاً فالبشارة عن الخير الذي يؤثر في القلب ، فيتغير بسببه لون بشرة الوجه وهذا يتناول ما إذا تغيرت البشرة بسبب الفرح أو بسبب الغم[1]».

ثم إن في تنكير العذاب وتنوينه ووصفه بأنه أليم ما يفيد أنه نوع من العذاب مهول عظيم ؛ حيث إن هذه الأموال تُدخل نار جهنم ويُحمى عليها بنار شديدة الحمي فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فقد روى مسلم في صحيحه قال : « حدّثني سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ . حَدَّثَنَا حَفْصٌ يَعْنِي ابْنَ مَيْسَرَةَ الصَّنْعَانِيَّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ أَبَا صَالِحٍ ذَكْوَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا

---

(١) التفسير الكبير ج ١٦ ص ٤٧ ، ٤٨ .

هُرَيْرَةَ ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : « مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ ، لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ. فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ . كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ . فَيُرَىٰ سَبِيلُهُ. إِمَّا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ " . قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالإِبِلُ ؟ قَالَ: "وَلاَ صَاحِبُ إِبِلٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا. وَمِنْ حَقِّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا. إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلاً وَاحِداً، تَطَأُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ. فَيُرَىٰ سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ". قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: " وَلاَ صَاحِبُ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئاً، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلاَ جَلْحَاءُ وَلاَ عَضْبَاءُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا. كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ. فَيُرَىٰ سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ إِلَى النَّارِ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْخَيْلُ؟ قَالَ : " الْخَيْلُ ثَلاَثَةٌ : هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ . وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ. وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ " [1]».

ثم إن الفعل ﴿ يُحْمَىٰ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ لأن الغرض منصب على هنا على بيان الإحماء ، وليس على من يقوم بهذا الإحماء لأنه لا يتعلق به غرض من الأغراض ، يقول الزمخشري « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾ ؟ وهلا قيل : تحمي ، من قولك : حمى الميسم وأحميته ، ولا تقول : أحميت على الحديد ؟ قلت : معناه أن النار تحمى عليها أي توقد ذات حمى وحرّ شديد،

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٢٤٣ .

من قوله : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة/ ١١] ولو قيل : يوم تحمى ، لم يعط هذا المعنى . فإن قلت : فإذا كان الإحماء للنار، فلم ذكر الفعل ؟ قلت: لأنه مسند إلى الجار والمجرور ، أصله : يوم تحمى النار عليها ، فلما حذفت النار قيل : يحمى عليها ، لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها ، كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير وعن ابن عامر أنه قرأ : (تحمى) بالتاء[1]» .

وقد خُصت الجباه والجنوب والظهور في قوله تعالى : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ؛ « لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها في سبيل الله إلاّ الأغراضَ الدنيوية، ومن وجاهة عند الناس، وتقدّم، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله ﷺ : « ذهب أهل الدثور بالأجور[2]» وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم. وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم ونصه « حدّثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْمَاءَ الضُّبَعِيُّ. حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ. حَدَّثَنَا وَاصِلٌ مَوْلَىٰ أَبِي عُيَيْنَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ عُقَيْلٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ قَالُوا لِلنَّبِيِّ : يَا رَسُولَ اللّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ. يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي. وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: " أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً. وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ. وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ. وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» صحيح مسلم حديث رقم ٢٢٨٢ . والدثور : المال الكثير .

وجنوبهم[1]» .

ثم إنه يُقال لهم على سبيل التبكيت والتوبيخ : ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ، وقد عُبر بالاسم الموصول (ما) للتنبيه على خطأهم ؛ حيث إنهم قد كنزوا المال لينتفعوا به ، ويحصلوا الأغراض التي يريدونها ، فكان ذلك سببًا في مضرتهم وتعذيبهم ، روى الحاكم في المستدرك قال : « أخبرنا أبو الفضل الحسن بن يعقوب ، ثنا يحيى بن أبي طالب ، ثنا عبد الوهاب بن عطاء ، أنبأ سعيد بن أبي عروبة وأخبرنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه ، أنبأ أبو المثنى ، ثنا محمد بن المنهال ، ثنا يزيد بن زريع ، ثنا سعيد عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد الغطفاني ، عن معدان بن أبي طلحة اليعمري ، عن ثوبان قال : قال رسول الله : " مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مَثَّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ شُجاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبيبتانِ يَتْبَعُ فاهُ فيقولُ : وَيْلَكَ ما لَكَ فيقولُ : أَنا كَنْزُكَ الَّذي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ ، فَلا يَزالُ يَتْبَعُهُ حتّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمُها ثُمَّ يَتْبعهُ سائر جَسدِهِ " .

هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه [2]».

ثم إنهم يُبالغ لهم في التقريع والتوبيخ فيؤمروا بأن يذوقوا وبال الذي كانوا يكنزونه ولا يؤدون زكاته ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ والأمر بذوق العذاب والآلام ليس على حقيقته ، ولكن شبه ذلك بشيء مر كدر على سبيل الاستعارة المكنية ، وهي من الاستعارات التي صارت كأنها حقيقة في ذلك.

*****

د/ عبد الفتاح السيد نوفل

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) المستدرك حديث رقم ١٤٦٧ . وصحيح ابن حبان حديث رقم ٣٢٢٥ .

ثبت بأهم المصادر والمراجع

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العَمادي الحنفي . المتوفى سنة ٩٨٢ هـ. وضع حواشيه عبداللطيف عبدالرحمن .طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ /١٩٩٩ م .
* البحر المحيط . لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ ــ ٧٥٤ هـ) طُبع بعناية الشيخ عرفات العَشا حسونة ، وصدقي محمد جميل ، والشيخ زهير جعَيد . طبعة الكتبة التجارية . مكة المكرمة .
* التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر بن عاشور ، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس .
* تفسيرغرائب القرآن ورغائب الفرقان . للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري . المتوفى سنة ٧٢٨ هـ . ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .
* تفسير القرآن العظيم : للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي . تحقيق سامي بن محمد السلامة . طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م .
* التفسير الكبير . للإمام الفخر الرازي . طبعة دار إحياء التراث العربي. بيروت . الطبعة الثالثة .

* جامع الأحاديث والمراسيل : لجلال الدين السيوطي ، نشر دار الفكر ١٩٩٤م .
* جامع البيان عن تأويل آي القرآن . لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . المتوفى سنة ٣١٠ هـ طبعة دار الفكر. بيروت ـ لبنان ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م .
* الجامع لأحكام القرآن . لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . طبعة دار إحياء التراث العربي .
* حاشية الشهاب . المسماة : عناية القاضي وكفاية الراضي . للقاضي شهاب الدين أحمد ابن محمد بن عُمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ على تفسير البيضاوي . الإمام أبي سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد . المتوفى سنة ٦٩١ هـ . ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ عبدالرزاق المهدي طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م .
* الدر المصون في علوم الكتاب المكنون . لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي . تحقيق د/ أحمد محمد الخراط . طبعة دار القلم دمشق .الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م .
* دلائل الإعجاز . للإمام عبد القاهر الجرجاني . قرأه وعلق عليه الشيخ محمود محمد شاكر . طبعة مطبعة المدني ١٩٨٤م .
* دلالات التراكيب . للدكتور محمد محمد أبو موسى .طبعة دار التضامن. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ م .
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، طبعة إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

* سنن أبي داوود . سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني . طبعة دار إحياء التراث العربي .
* سنن الترمذي : لأبي عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي ، نشر دار الكتب العلمية ١٩٩٤ .
* السنن الكبرى . للبيهقي . أحمد بن الحسين بن علي . طبعة دار الفكر .
* سنن النسائي الصغرى.لأحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار،أبو عبد الرحمن النسائي . طبع دار الفكر .
* صحيح البخاري . لأبي عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ا لبخاري ، نشر دار إحياء التراث العربي .
* صحيح ابن حبَّان : لأبي حاتم البستي ، محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن معبد التميمي ، نشر دار الفكر .
* صحيح مسلم . لأبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . نشر دار الكتب العلمية ١٩٩٢ م .
* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٤٦٧ ــ ٥٣٨ هـ) . رتبه وضبطه وصححه محمد عبدالسلام شاهين . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥ م .
* مجمع الزوائد : لعلي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، أبو الحسن ، نور الدين المصري القاهري . نشر دار الفكر .

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٤٨١ ــ ٥٤٦) تحقيق المجلس العلمي بفارس .
* مذكرات في الفصل والوصل والقصر . للشيخ سليمان نوار . طبع مطبعة العلوم . الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤ م .
* المستدرك . للحاكم النسابوري : محمد بن عبد الله بن حمدويه ابن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري، نشر دار الكتب العلمية .
* مسند أبي يَعْلَى . لأبي يَعْلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي . طبعة دار الكتب العلمية .
* مسند الإمام أحمد . لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي . نشر دار إحياء التراث العربي .
* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (المتوفى ٨٨٥ هـ) . خرج آياته وأحاديثه ووضع هوامشه عبد الرزاق غالب المهدي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م .
* النكت والعيون تفسير الماوردي . تصنيف أبي الحسن علي بن محمد ابن حبيب الماوردي البصري (٣٦٤ ــ ٤٥٠) راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت ــ لبنان .

*****

***

*